

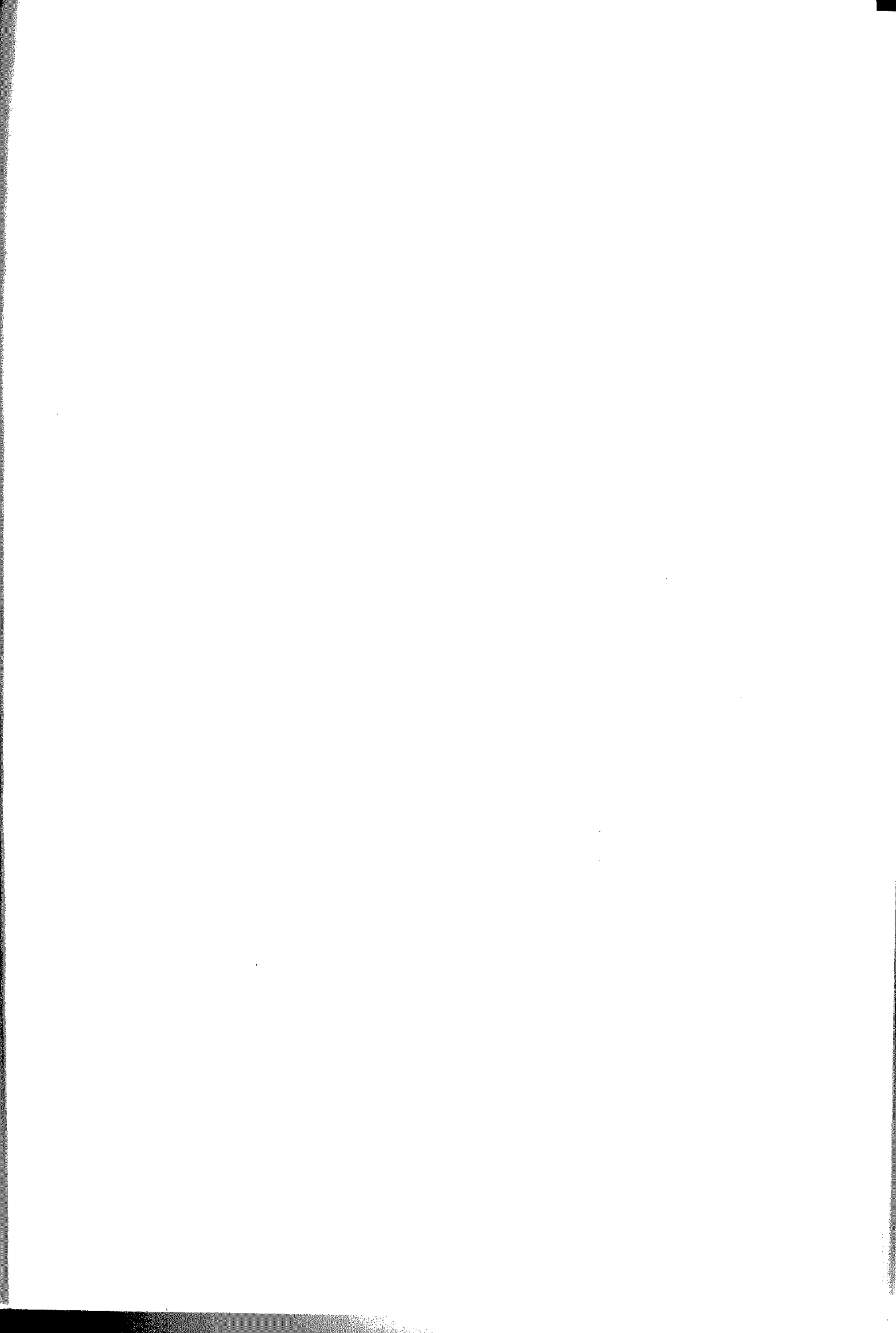
سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٨)

الإمام يوسف القرضاوي

المبشرات بانتصار الإسلام

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة ت : ٣٩١٧٤٧٠

المبشرات بانتصار الإسلام



سلسلة رسائل ترشيد الصحوة
(٨)

المبشرات بانتصار الإسلام

دكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن أتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) . .

فهذه الرسالة تتحدث عن (المبشرات بانتصار الإسلام) وأعتقد أن حديثنا عن (المبشرات) مطلوب - وخصوصًا فى هذه الآونة - لأكثر من سبب :

١ - هو مطلوب ، لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر ولا ننفر ، كما نحن مأمورون أن نيسر ولا نعسر ، فإن النبى ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا » ، وكذلك روى صاحبه وخادمه أنس بن مالك أنه أمر الأمة كلها بما أمر به معاذًا وأبا موسى فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

وأحمد الله أن هذا هو المنهج الذى وفقنى الله إلى التزامه فى الفتوى والدعوة ، ففى مجال الفتوى : التزمت التيسير لا التعسير ، وفى مجال الدعوة : التزمت التبشير لا التنفير . ولله الفضل والمنة .

٢ - وهو مطلوب ، لأن المسلمين عامة ، والعاملين للإسلام خاصة ، يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر ، وتكاد تغلب فى هذه المرحلة عوامل اليأس ، ومشاعر الإحباط ، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس ، قتل فيها الهمم ، وخدر العزائم ، ودمر الطموحات ، وهذه المعانى هى التى تحرك الإرادات للعمل ، وبذل الجهد .

ومرد هذا الشعور الأسود إلى الضربات المتلاحقة التى توجه بخبث ومكر - من أعداء الإسلام - إلى الصحوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، بغية إطفاء نور الإسلام ، ووقف حركته ، وتمويت يقظته ، واستعانوا على ذلك ببعض حكام المسلمين ، الذين خوفوهم من الصحوة ، وحرضوهم على الصفوة ، وأمروهم بضرب الدعوة ، وللأسف استجاب لهم أولئك الحاكمون ، الذين يخافون من انتصار الإسلام أن يحرمهم من شهواتهم ، وأن يجردهم من مكاسبهم المحرمة ، وأن يجرئ عليهم الشعوب ، لتحاسبهم على ما اقترفوا .

٣ - وهو مطلوب ، لأن القوى المعادية للإسلام ، تريد أن تعلن - بل قد أعلنت بالفعل - على الإسلاميين حربًا نفسية ، تيؤسهم

من الأمل فى غد أفضل ، والرجاء فى مستقبل مشرق . وبدأت حملات مسعورة ، تحركها قلوب موتورة ، وتقودها أقلام مأجورة ، وأبواق مأمورة ، تتهم وتلطخ وتشوه ، كل ما هو إسلامى ، وتتهم دعاة الإسلام وأبناء الصحوة بالتطرف حينًا ، وبالعنف أحيانًا ، وبالإرهاب طورًا ، وبالأصولية أطوارًا ، مطلقين على الحركة التى تدعو إلى الإسلام المتكامل - عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة - (اسم الإسلام السياسى) ، والإسلام الحقيقى لا بد أن يكون سياسيًا .

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضاد ، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام ، وإحياء الرجاء فى مستقبله ، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الذى يبدد ظلمات اليأس ، وغيوم الإحباط .

٤ - وهو مطلوب كذلك ؛ لأن كثيرًا من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن (آخر الزمان) وبعبارة أخرى : عن مستقبل الأمة ، وهو مستقبل أقرب إلى السواد ، إن لم يكن أسود حالكًا ، وهو فكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التى وردت فى سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، ولكن هذه الأفهام غير سليمة .

لهذا كنا فى حاجة إلى تجلية حقيقة (المبشرات) الغائبة عن كثيرين : من القرآن الكريم ، ومن السُّنَّة المشرفة ، ومن التاريخ

الحافل ، ومن الواقع الماثل ، ومن سنن الله الثابتة ، التى لن تجد لها تبديلاً ، ولن تجد لها تحويلاً .

وكل داعية للإسلام يجب أن يكون واثقًا بوعد الله تعالى ، مستبشرًا بمستقبل رسالته الخاتمة ، ودعوته الخالدة ، رافضًا اليأس الذى هو من لوازم الكفر ، والقنوط الذى هو من مظاهر الضلال .

وهكذا وجدت إمامنا الشهيد حسن البنا ، لم تنطفئ شعلة الأمل فى صدره فى أشد الأوقات حرجًا ، وكم دبج فى ذلك المقالات التى تحيى الأمل ، وتبعث الرجاء ، وكم كرر فى رسائله : أن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هى حقائق الغد !

وكتب الشهيد سيد قطب كتابه (المستقبل لهذا الدين) ، وهكذا كل الدعاة الأصلاء .

فلنستبشر خيرًا ، ولنأمل خيرًا : ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ للهِ ، سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

الفقير إليه تعالى :

الدوحة فى شوال ١٤١٦هـ - مارس ١٩٩٦م **يوسف القرضاوى**

* * *

---

(١) النمل : ٩٣

المبشرات بانتصار الإسلام

يتحدث كثير من الدعاة عن آخر الزمان ، وعن أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، حديثًا يوحى مجمله أن الكفر فى إقبال، وأن الإسلام فى إدبار ، وأن الشر ينتصر ، والخير ينهزم ، وأن أهل المنكر غالبون ، وأهل المعروف ودعاته مخذولون .

ومعنى هذا : أن لا أمل فى تغيير ، ولا رجاء فى إصلاح ، وأننا ننتقل من سيء إلى أسوأ ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءًا ، فما من يوم يمضى إلا والذى بعده شر منه ، حتى تقوم الساعة .

وهذا لا شك خطأ جسيم ، وسوء فهم لما ورد من بعض النصوص الجزئية ، وإغفال للمبشرات الكثيرة الناصعة القاطعة ، بأن المستقبل للإسلام ، وأن هذا الدين سيظهره الله على كل الأديان ، ولو كره المشركون .

لهذا كان من اللازم أن نتحدث عن هذه (المبشرات) ، ونشيعها بين المسلمين ، حتى نبعث الأمل المحرك للعزائم ، ونهزم اليأس القاتل للنفوس .

وهذه المبشرات كثيرة والحمد لله ، بعضها مبشرات نقلية من القرآن الكريم ومن السُّنَّة النبوية ، وبعضها من التاريخ ، وبعضها من الواقع ، وبعضها من سنن الله فى الخلق .

وسنتحدث عن كل واحدة من هذه المبشرات فى الصحائف التالية ، بما يفتح الله به .

* * *

المبشرات من القرآن الكريم

أول هذه المبشرات : ما جاء فى القرآن مما وعد به الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بنصرة الإسلام ، وإتمام نوره ولوكره الكافرون ، وإظهاره على كل الأديان ولو كره المشركون .

نقرأ فى سورة التوبة - فى سياق الحديث عن الذين يعادون الإسلام من المشركين وأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله - قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هاتين الآيتين :

« يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب : ﴿ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ ﴾ أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّآ أَن

---

(١) التوبة : ٣٢ ، ٣٣

يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والكافر هو الذى يستر الشيء ويغطيه ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ ، فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ، ودين الحق هو : الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى على سائر الأديان ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « إِنَّ اللهَ زَوَى لِى الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » [١] ، وأخرج الإمام أحمد بسنده عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدَّى الأمانة » [٢] وأخرج الإمام أحمد أيضًا عن تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والجزية [٣] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب (الفتن وأشراط الساعة) ، حديث رقم ١٩ وأبو داود (٤٢٥٢) .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » (٥/ ٣٦٦) وحذفنا السند اختصارًا .

(٣) المسند : (٤/ ١٠٣) .

وفى المسند أيضًا عن عدى بن حاتم يقول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « يا عدى أسلم تسلم » فقلت : إنى من أهل دين ، قال : « أنا أعلم بدينك منك » ثم قال : « إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » ، قلت : لم أرها وقد سمعت بها، قال : « فوالذى نفسى بيده ليتمنَّ اللهُ هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » ، قال عدى : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها [(١)] ، وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتي تعبد اللات والعزى » ، فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الآية أن ذلك تام ، قال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عَزَّ وجَلَّ ، ثم يبعث الله ريحًا طيبة ، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة

---

(١) أحمد فى المسند : (٤/٢٥٧) .

خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم » [1] .

وهذا المعنى تكرر فى سورة الصف حيث يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [2] .

وفى سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ [3] .

ومن المبشرات القرآنية قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [4] .

يقول ابن كثير : « هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ،

---

(١) مسلم فى كتاب (الفتن وأشراط الساعة) ، حديث (٧٢) .

(٢) الصف : ٨ ، ٩ (٣) الفتح : ٢٨ (٤) النور : ٥٥

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا وحكمًا فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس ، وملوك عُمان ، والنجاشى ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلمَّ شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم ، وأخذ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ففتحوا طرفًا منها ، وجيشًا آخر صحبه أبى عبيدة رضى الله عنه ومن أتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها .

وتوفاه الله عَزَّ وجَلَّ ، واختار له ما عنده من الكرامة ، ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قيامًا تامًا ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله فى قوة سيرته ، وكمال عدله ، وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكُسر كسرى ، وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده

عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية - دولة عثمان بن عفان - امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأُمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا » أ هـ .

وهذا الوعد الإلهى للمؤمنين وعد دائم ومستمر ، وما تحقق فى عهد الخلفاء الراشدين من نصر وتمكين ، يمكن أن يتحقق لمن بعدهم ، فإن وعد الله تعالى لا يتخلف ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [1] ، ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، قال تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ﴾ [2] .

* *

(١) الكهف : ٩٨ (٢) النور : ٥٥

• قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذبين :

ومن المبشرات القرآنية ما قصه علينا القرآن من قصص الرسل والمؤمنين وأقوامهم ، ومخالفيهم من المشركين ، وكيف كانت العاقبة للرسول والذين آمنوا معه ، وكان الهلاك والدمار للذين تمردوا على الله وكذبوا المرسلين .

ومن ذلك : قصة موسى وقومه وفرعون وملئه ، وكيف حول الله بنى إسرائيل على يد موسى من حال إلى حال ، وأغرق فرعون وجنوده ، وحقق الله إرادته فى تمكين المستضعفين ، وإدالة دولة الطاغين المتجبرين .

اقرأ هذه الآيات من سورة القصص :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [(١)] .

فسخر القدر الأعلى من فرعون وملئه وجنده ، فقد كان يذبح أبناء بنى إسرائيل حتى لا يظهر منهم من يزول ملكه على يديه . فإذا

---

(١) القصص : ٤ - ٦

الطفل الموعود يدخل قصر فرعون بإرادته وينشأ ويترعرع فيه وتحت سمعه وبصره ، وهو لا يدرى ، كما قال تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (١) .

وكان ما كان من أمر موسى وفرعون مما قص علينا القرآن تفصيلاً ، وبعث الله موسى رسولاً إلى فرعون وقومه ، ومعه أخوه هارون ، وكان لقاء وتحدّ انتهى بهزيمة فرعون على أيدى سحرته أنفسهم ، الذين خروا ساجدين وقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٢) .

وجن جنون فرعون ، وهدد وتوعد ، وأرغى وأزبد . وأوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون . ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) القصص : ٨ (٢) الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢

(٣) الشعراء : ٥٣ - ٥٩

• وعد الله بِنصر الْمؤمنين وإنجائهم والدِّفَاع عنهم :

ومن المبشرات القرآنية : وعد الله المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية والمعية ، على وجه العموم .

إقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَنْ تُغْنِىَ عَنكُم فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

ويتأكد هذا الوعى الإلهى عند حلول المحن والشدائد بساحة المؤمنين ، حين تمسهم البأساء فى الأموال ، والضراء فى الأبدان ، والزلزلة فى النفوس ، هناك يكون النصر أقرب ما يكون من المؤمنين . .

كما قال تعالى : ﴿ أَم حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبْلِكُم ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾(٦) ،

---

(١) الروم : ٤٧ (٢) يونس : ١٠٣ (٣) الحج : ٣٨

(٤) البقرة : ٢٥٧ (٥) الأنفال : ١٩ (٦) البقرة : ٢١٤

يقول الرسول والمؤمنون من قومه : متى نصر الله ؟ استبطاء لمجئ النصر ، وكان الإنسان عجولاً ، وهنا يطمئنهم الله بهذه الجملة الفاصلة التى ختم بها الآية الكريمة ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ . ولكنه لا يعجل بعجلة أحدنا ، وكل شىء عنده بمقدار ، وبأجل مسمى ، لا يستأخر ولا يستقدم .

وقال تعالى فى خواتيم سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَن نَّشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

فانظر إلى هذه الصيغة ودلالتها ﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من طول ما ارتقبوا النصر ، فلم يجئ فى الوقت الذى كانوا يرغبونه ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَد كُذِبُوا ﴾ الضمير فى قوله : ﴿ ظَنُّوا ﴾ يعود إلى الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل ، وذكروا فى الآية السابقة ، فهم ظنوا أن الله أخلف رسله ما وعدهم ، ولم يصدقهم الوعد .

وهنا تكون المفاجأة بعد الاستيئاس من جانب الرسل وظن السوء من جانب أقوامهم المشركين ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَن نَّشَاءُ ﴾

فهو يأتى أحوج ما يكون الناس إليه ، وأرغب ما يكون فى وصوله : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فهذا من سنن

---

(١) يوسف : ١١٠

الله مع المجرمين : ملاحقتهم بالبأس الإلهى حتى يؤدبهم ويعرفهم بمقدار أنفسهم ، ويخفف من غلوائهم .

ومن ثم استقر فى عقول المسلمين وقلوبهم : أن الأزمة كلما اشتدت وتفاقمت آذنت بالانفراج ، وأن أحلك سويعات الليل سوادًا هى السويعات التى تسبق الفجر ، وفى هذا قال الشاعر :

اشـــتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلك بالبلَج !

وقال الآخر :

ولرب نازلـــــة يضيـــق بها الفتى

ذرعًـــا ، وعند الله منها المخـــرج !

ضاقت ، فلما استحكمت حلقاتها

فـــرجت ، وكنت أظنها لا تفرج !

* *

● وعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم :

يكمل وعد الله بنصر المؤمنين : وعده سبحانه بإحباط كيد الكافرين ، ومكرهم بالإسلام وأهله ، وجهودهم الدائبة لإطفاء نوره ؛ وأنه تعالى سيرد كيدهم فى نحورهم ، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم . وهو - جل شأنه - لا يخلف الميعاد .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (١) .

وقوله تباركت أسماؤه : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى بيان عاقبة بذلهم الأموال والجهود للصد عن الإسلام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ ﴾ (٥) .

والفئتان المذكورتان فى الآية الكريمة هما : فئة المؤمنين وفئة

---

(١) الطارق : ١٥ - ١٧

(٢) الأنفال : ٣٠

(٣) يونس : ٨١ ، ٨٢

(٤) الأنفال : ٣٦

(٥) آل عمران : ١٢ ، ١٣

المشركين فى بدر ، وقد نصر الله المؤمنين - وهم أقل عددًا ، وأضعف عدة واستعدادًا - على المشركين ، بما منحهم الله من إيمان وثبات ، وما أنزل عليهم من جنده ، وما قذف فى قلوب أعدائهم من رعب ، وما عملت فيهم يد القدر الأعلى بما هو فوق الأسباب المعتادة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ (١) .

وقال تعالى فى شأن جلاء بنى النضير من اليهود : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

إنها يد الله ، تعمل بالأسباب ، ومن غير الأسباب ، وهى مع المؤمنين دائمًا وأبدًا ، حتى ينتصروا وتعلو بهم كلمة الله .

* * *

---

(١) الأنفال : ١٧ (٢) الحشر : ٢

● فسوف يأتى الله بقوم يحبهم :

ومن المبشرات القرآنية : ما ذكره الله تعالى فى سورة المائدة ، مهددًا المرتدين المارقين من الدين ، بأنهم لن يضروا دين الله شيئًا ، ولن ينهدم الدين بارتدادهم عنه ، فقد تكفل سبحانه بأنه يدخر لهذا الدين جيلاً من المؤمنين الأقوياء ، يقاومون الردة والمروق ، ويقيمون الدين فى أنفسهم : علاقة وثيقة - بل علاقة حب - بينهم وبين ربهم ، وعلاقة تعاطف ورحمة مع أهل الإيمان ، وعلاقة عزة وقوة مع أهل الكفر والطغيان ، وعلاقة جهاد ونضال مع أهل الشر والمنكر ، فهذه أوصافهم الأساسية التى أبرزها القرآن فى معرض البشارة للمؤمنين ، والنذارة للمرتدين :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة : إنه من تولى عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته ،

---

(١) المائدة : ٥٤

بأن الله سيستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾[3] . أى ليس بممتنع ولا صعب .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ :

(أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل . وذكر ابن كثير هنا حديث أبى ذر - الذى رواه الإمام أحمد - قال رضى الله عنه : أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع . . وذكر منها : وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرًا ، وأمرنى ألا أخاف فى الله لومة لائم)[4] .

* * *

---

(١) محمد : ٣٨ (٢) النساء : ١٣٣

(٣) إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر : ١٦ ، ١٧

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ج ٢/ ٦٩ ، ٧٠ - طبعة عيسى الحلبى .

● **سنريهم آياتنا :**

ومن المبشرات القرآنية قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

وهذا وعد من الله تعالى ، يبرز منه فى كل زمن ما نشهده بأعيننا ، وما نسمعه بآذاننا ، وما نحسه بقلوبنا .

ومن جملة ذلك : ما نراه فى عصرنا من دراسات من أهل العلم الطبيعى والرياضى ، لبيان أوجه جديدة للإعجاز العلمى فى القرآن ، وفى بعض هذه الدراسات نظرات جيدة وعميقة اعترف بها عدد من غير المسلمين .

* * *

(١) فصلت : ٥٣

المبشرات من السُّنَّة النبوية

وفى السُّنَّة النبوية والسيرة النبوية : مبشرات كثيرة وفيرة ، مر بنا ذكر بعضها فيما نقلناه عن الحافظ ابن كثير .

وهذه المبشرات النبوية قد حفلت بها دواوين الحديث الشريف ، من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء ، وغيرها من المصنفات الحديثية .

ولكن المسلمين - فى عصور التراجع والتخلف - أغفلوها ونسوها ، ولم يذكروا إلا أحاديث الفتن وأشراط الساعة ، وقد فهموها فهما يوحى باليأس من صلاح الحال ، ومن كل عمل ينهض بالأمة من عثرتها ، ويجتهد فى تغيير الواقع إلى ما هو أحسن وأمثل . ولا يعقل أن يصدر من هادى الأُمَّة أن يثبطها عن محاولة الإصلاح ، وإرادة التغيير .

وكل هذه المبشرات إخبار بمستقبل الإسلام ، وأن الغد له ولأمته ، أخبر بها من لا ينطق عن الهوى .

وأود أن أذكر بأن الرسول الكريم لا يعلم الغيب بذاته ، فالله وحده هو الذى يعلم الغيب بذاته ، كما قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ (1) .

---

(1) النمل : ٦٥

وإنما يعلم الرسول من الغيب ما أعلمه الله تعالى به ، فهو يخبر به كما أعلمه الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (١) .

وسنذكر أهم هذه المبشرات فى الصحائف التالية :

* *

١ - انتشار الإسلام فى العالم كله :

من هذه المبشرات : ما رواه تميم الدارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليبلغن هذا الأمر (يعنى أمر الإسلام) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ، إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر » (٢) .

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار : انتشاره فى الأرض كلها ، حيث يبلغ الليل والنهار ، ودخول هذا الدين الحواضر والبوادى ، فالحواضر هى التى بيوتها من مدر (أى من حجر) ، والبوادى هى التى بيوتها من وبر وشعر ، وسيدخل الإسلام جميعها ، وبهذا

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧

(٢) رواه أحمد فى مسنده : (٤ : ١٠٣) ، وأورده الهيثمى فى المجمع ، وقال : رواه أحمد والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح : (٦/ ١٤) ، وفيه أغلاط مطبعية .

يتحقق وعد الله تعالى فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وذلك فى ثلاث آيات : فى التوبة : ٣٣ ، وفى الفتح : ٢٨ ، وفى الصف : ٩ .

ومعنى ظهوره على الدين كله ، غلبته على جميع الأديان ، وفى القرون الإسلامية الأولى غلب الإسلام على اليهودية والنصرانية والوثنية العربية والمجوسية الفارسية ، وبعض أديان آسية وأفريقية ، ولكنه لم ينتصر على جميع الأديان ، فلا زلنا ننتظر هذه البشارة ، ولن يخلف الله وعده .

وأكد هذه البشارة : ما رواه المقداد بن الأسود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل . . » (١) الحديث .

* *

٢ - عودة الإسلام إلى أوربة وفتح رومية :

ومن هذه المبشرات ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى قبيل قال :

---

(١) رواه أحمد : (٦/ ٤) ، والطبرانى : ٢٠/٦٠١ ، وابن حبان (٦٦٩٩ ، ٦٧٠١) ، والحاكم : (٤/ ٤٣٠) ، وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وأورده الهيثمى : (٦/ ١٤) ، ويبدو أن فى الكلام سقطًا ، فقد قال : ورجال الطبرانى رجال الصحيح ، مما يدل أنه قال : رواه أحمد والطبرانى .

كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب [1] ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال : « مدينة هرقل [2] تفتح أولاً ! » [3] .

---

(١) يدل هذا على أن تدوين الحديث أو كتابته بدأ منذ عهد النبى ﷺ ، وعلى ذلك أدلة كثيرة ، ومن المعروف أن عبد الله بن عمرو كان له صحيفة يكتب فيها تسمى (الصادقة) ولعلها هى التى كانت فى الصندوق ذى الحلق . الذى أخرجه ليجيب السائل .

(٢) هرقل هو الإمبراطور الذى كان يحكم دولة الروم البيزنطية فى عهد البعثة المحمدية ، وهو الذى أرسل إليه النبى ﷺ كتابه الشهير يدعوه فيه وشعبه إلى الإسلام . وهو الذى أحضروا إلى مجلسه أبا سفيان قبل إسلامه ، وسأله عن النبى ودعوته أسئلة دقيقة تدل على ذكائه وعقله ، وتبين له منها صدق النبى ﷺ ولكنه حين اختبر من حوله فوجد منهم صدودًا ونفرة عن الإسلام غلب حب ملكه على أتباع الحق ، وباع الدين بالدنيا ، وقد بقى إلى أن فتحت سوريا فى عهد عمر رضى الله عنه فغادرها وهو يقول : سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ! .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، حديث (٦٦٤٥) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأورده الهيثمى فى المجمع : (٦/ ٢١٩) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير أبى قبيل ، وهو ثقة ، وذكره الألبانى فى سلسلته الصحيحة برقم (٤) .

ورومية هى : روما عاصمة إيطاليا الآن ، والقسطنطينية هى : إستانبول الآن ، يفهم من السؤال أن الصحابة كانوا قد علموا قبل ذلك أن الإسلام سيفتح المدينتين ، ويدخل أهلهما فى دين الله ، ولكن يريدون أن يعرفوا : أىّ المدينتين تسبق الأخرى ، فأجابهم أن مدينة هرقل - وهى القسطنطينية - ستفتح أولاً .

وقد تحقق ذلك على يد الفتى العثمانى الطموح (محمد بن مراد) ابن الثالثة والعشرين ، الذى عُرِف فى التاريخ باسم (محمد الفاتح) ، وفتحت (مدينة هرقل) فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، وبالتحديد : فى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ - ٢٩ آيار (مايو) سنة ١٤٥٣ م .

وبقى الجزء الثانى من البشرى : فتح رومية ، وبه يدخل الإسلام أوروبا مرة أخرى بعد أن طرد منها مرتين : مرة من الأندلس ، ومرة من البلقان .

وظنى أن هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان ، لا بالسيف والسنان ، وأن العالم سيفتح ذراعيه وصدره للإسلام ، بعد أن تشقيه الفلسفات المادية (الأيديولوچيات) الوضعية ، ويتطلع إلى مدد من السماء ، وهدى من الله ، فلا يجد إلا الإسلام طوقًا للنجاة .

و(الفتح السلمى) له أصل فى الإسلام ، فقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحًا ، بل « فتحًا مبينًا » وأنزل فى ذلك سورة (الفتح) :

وفيها يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . ﴾ وسأل الصحابة رسول الله ﷺ : أفتح هو يا رسول الله ؟ فقال : نعم هو فتح .

* *

٣ - اتساع دولة الإسلام فى المشارق والمغارب :

ومن هذه المبشرات ما رواه مسلم وغيره عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . . » الحديث [١] .

ومعنى (زوى لى الأرض) : أى قبضها ، وضمّها وجمعها له عليه الصلاة والسلام حتى يراها جملة واحدة .

وهذا الحديث يبشر باتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشارق والمغارب ، أى : الأرض كلها ، فإذا كان حديث تميم الدارى ، وحديث المقداد السابقان - يؤذنان بانتشار دعوة الإسلام ، وعلو كلمة الإسلام ، فهذا الحديث يبشر بقوة دولة الإسلام واتساعها ، بحيث تضم المشارق والمغارب ، التى رآها النبى ﷺ ، وبهذا تلتقى

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الفتن وأشراط الساعة برقم (٢٨٨٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذى (٢٢٠٣) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) .

قوة الدعوة ، وقوة الدولة ، وبعبارة أخرى : قوة القرآن وقوة السلطان ، وفى هذا من الخير ما فيه .

❋ ❋

٤ - الرخاء والأمن وفيض المال :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا » وزاد أحمد فى روايته : « وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق » (١) .

ومنها : ما رواه أبو هريرة أيضًا عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض ، حتى يُهم ربَّ المال من يقبل منه صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه : لا أرب لى » (٢) .

يؤكده حديث أبى موسى مرفوعًا : « ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ! ثم لا يجد أحدًا يأخذها منه » (٣) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزكاة برقم (١٠١٢ ، ٦٠) ، وأحمد : ٢/ ٣٧٠ ، ٣٧١) .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٤) .

(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٣) .

ومثله حديث حارثة بن وهب مرفوعًا : « تصدقوا ، فإنه يأتى عليكم زمان يمشى الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها ، يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتها ، فأما اليوم فلا حاجة لى بها » (١) .

وهذا كله دليل على ظهور الرخاء ورغد العيش ، وزوال الفقر من المجتمع ، بحيث لا يوجد فيه فقير يستحق الصدقة أو يقبلها . وهذا من بركات عدل الإسلام ، وأثر الإيمان والتقوى فى حياة الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) .

* *

٥ - عودة الخلافة على منهاج النبوة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه حذيفة بن اليمان عنه - صلى الله عليه وسلم - قال :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا عاضًا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا جبَريا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا

---

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٢) . (٢) الأعراف : ٩٦

شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » ثم سكت ؟ [1] .

والملك العاضّ - وفى رواية : العضوض - هو الذى يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنه له أنيابًا تعض . أما ملك الجَبَرية فهو القائم على الجبروت والطغيان ، أشبه بالحكم العسكرى المستبدّ فى عصرنا .

فهذا الحديث يبشر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان ، وعودة الخلافة الراشدة ، المتبعة لمنهاج النبوة فى إقامة العدل والشورى ، ورعاية حدود الله وحقوق العباد .

* *

٦ - الانتصار على اليهود :

ومن هذه المبشرات : ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، ثم يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودى ورائى ، فاقتله » [2] .

ومثله ما رواه أبو هريرة مرفوعًا : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل

---

(١) رواه أحمد : (٤/ ٢٧٣) ، وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٥/ ١٨٩): رواه أحمد ، والبزار أتم منه ، والطبرانى ببعضه فى الأوسط ، ورجاله ثقات .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٨٤٩) .

المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ؛ يا عبد الله ؛ هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله » (١) .

فهل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال - آية من آيات الله ، وما ذلك على الله بعزيز - أو ينطقان بلسان الحال ؟ بمعنى أن كل شىء يدُلّ على اليهود ، ويكشف عنهم .

وأيا كان المراد ، فالمعنى أن كل شىء سيكون فى صالح المسلمين ، وضد أعدائهم اليهود ، وأن النصر آتٍ لا ريب فيه ، وأن أسطورة (القوة التى لا تقهر) التى يشيعها اليهود لن تستمر ، وأن الذين اغتصبوا فلسطين بقوة السلاح ، وسلاح القوة ، سيخذلهم الله ، الذى يملى للظالمين ، ثم يأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا ، ولن تغنى عنهم ترسانتهم النووية التى يُدِلُّون بها ، كما لم تغن حصون أسلافهم من بنى النضير عنهم شيئًا ، حين جاءهم بأس الله الذى لا يَرد عن القوم المجرمين ، كما قال تعالى فى شأنهم : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أن يَخْرُجُوا ، وظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ،

---

(١) رواه مسلم فى صحيح الجامع الصغير (٧٤٢٧) .

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ ﴾ [1] .

* *

٧ - بقاء الطائفة المنصورة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه عدد من الصحابة رضى الله عنهم ، مثل ما رواه معاوية عنه ﷺ قال :

« لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس » [2] .

وقد صح هذا الحديث من رواية عمر والمغيرة وثوبان وأبى هريرة وقرة بن إياس وجابر وعمران بن حصين وعقبة بن عامر [3] ، وجابر ابن سمرة [4] . وأبى أمامة ، الذى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى على الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء

---

(١) الحشر : ٢

(٢) رواه أحمد والشيخان - صحيح الجامع الصغير (٧٢٩٠) .

(٣) انظر أحاديثهم فى صحيح الجامع الصغير من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

(٤) صحيح الجامع الصغير (٧٧٠٤) .

حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » . قالوا : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس » (١) .

ومعنى هذه الأحاديث كلها : أن الخير سيستمر فى هذه الأمة ، وأنها لا تخلو من قائم لله بالحجة ، ومن ناصر للحق ، مستمسك به ، حتى تقوم الساعة ، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتى أمر الله ، وإن أصابها ما أصابها من لأواء وأذى .

يؤكد هذا ما رواه أبو مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله أجاركم من ثلاث خلال : ألا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعًا ، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وألا تجتمعوا على ضلالة » (٢) .

* *

٨ - ظهور المجددين فى كل قرن :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » (٣) .

---

(١) المسند : (٥/٢٦٩) ، وفيه قال عبد الله : وجدت بخط أبى .. الحديث ، وأورده الهيثمى وعزاه إلى المسند والطبرانى : قال : ورجاله ثقات : (٧/٢٨٨) .

(٢) رواه أبو داود فى الفتن (٤٢٥٣) .

(٣) رواه أبو داود فى كتاب الملاحم (٤٢٩١) ، والحاكم وصحّحه .

وكلمة (من) فى الحديث تشمل (المفرد) كما قالوا عن عمر ابن عبد العزيز والشافعى والغزالى ، كما تشمل الجمع ، كما ذهب إليه بعض الشراح ، وهو ما نختاره ، فقد يكون المجدد جماعة دعوية أو تربوية أو جهادية ، وهنا يكون سؤال المسلم : ما دورى فى حركة التجديد ؟ بدل أن يكون كل همه انتظار ظهور المجدد ، وهو لا حول له ولا قوة [١] !

* *

٩ - نزول المسيح :

ومن المبشرات التى صحت بها السنة : نزول المسيح عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكمًا بشريعة الإسلام ، خليفة لمحمد رسول الله وخاتم النبيين .

وقد ذكر المحققون من علماء الحديث أن الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن بلغت حد التواتر ، الذى يثبت به العلم اليقينى .

وقد ذكر منها العلامة مولانا أنور الكشميرى أربعين حديثًا ما بين صحيح وحسن - بخلاف الضعيف - فى كتابه (التصريح بما تواتر

---

(١) انظر : حديثنا عن (تجديد الدين فى ضوء السنة) فى كتابنا (من أجل صحوة راشدة) طبع المكتب الإسلامى ببيروت ، ودار البشير بطنطا بمصر .

فى نزول المسيح) الذى حققه صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

ومن آمن بقدرة الله تعالى ، التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وعرف آيات الله تعالى فى الكون ، وآياته التى أيد بها رسله ، لم يصعب عليه أن يؤمن بنزول المسيح من السماء ، بعد أن رفعه الله إليها ، حين أراد أعداؤه قتله وصلبه عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) ، وحتى لو قلنا كما قال بعضهم : إن المسيح مات ، فليس بعيدًا ولا غريبًا أن يبعثه الله ويحييه ، آية لخلقه ، كما كان هو يحيي الموتى بإذن الله .

* *

١٠ - ظهور المهدى :

ومن المبشرات المشهورة فى السُّنَّة : الأحاديث التى جاءت فى شأن ظهور المهدى ، والصحيح منها الذى لا اعتراض عليه ، ولا ينبغى أن يخالف فيه مخالف : أن هناك حاكمًا مسلمًا ملتزمًا بالإسلام ، سيظهر بعد عهود جور وفساد ، يقيم دين الله فى الأرض ، ويملؤها عدلاً ، كما ملئت ظلمًا وجورًا . أما الخلاف

---

(١) النساء : ١٥٨

فهو فى نسبه واسمه وشكله وصورته ، ووقت ظهوره ، وهذا لا يهمنا . إنما الذى يهمنا هو الفكرة نفسها ، وهى مسلّمة ، وهى إحدى البشائر النبوية ، وحسبنا هنا الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لبعث الله رجلاً منا ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جورًا » (١) .

وروى الحاكم عن أبى سعيد مرفوعًا : « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلمًا وجورًا وعدوانًا ، ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملؤها قسطًا وعدلاً ، كما ملئت ظلمًا وجورًا وعدوانًا » (٢) .

وقد بالغ بعض المتأخرين من المؤلفين فى علم التوحيد ، فأدخلوها فى (العقائد) التى يجب الإيمان بها .

وفى رأيى أنه لا ضرورة للتوسع فى العقائد التى يطلب الإيمان بها من عموم الناس : وحسبنا ما جاء به القرآن من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأضافت إليه السُّنَّة الإيمان بالقدر ، وهو جزء من الإيمان بالله تعالى ، ولذا لم يفرده القرآن بالذكر .

* * *

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب المهدى (٤٢٨٣) ، وسكت عنه هو والمنذرى ، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر فى تخريج المسند ، وفيه فطر بن خليفة (٧٧٣) ، وقد ذكره فى صحيح الجامع الصغير ، وزيادته (٥٣٠٥) .

(٢) رواه الحاكم وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى : (٤/٥٥٧) .

مبشرات من التاريخ

ولا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة ، والتى تملأ القلب يقينًا بأن الغد لهذا الدين العظيم. بل إننا نجد فى وقائع التاريخ وأحداث الماضى : ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل فى مستقبله ، برغم ما يقف فى سبيله اليوم من عقبات ، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة ، بعضها من صنع أعدائه فى الخارج وأخرى من صنع خصومه فى الداخل ، وأعجب شىء أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممن يحملون اسم الإسلام ، ولكنهم - فى الحقيقة - قد انضموا إلى صفوف محاربيه ، فلا يريدون للشريعة أن تحكم ، ولا لقيمه أن تسود ، ولا لكلمته أن تكون هى العليا .

❋ ❋

● حقيقتان كبيرتان من التاريخ :

وحسبنا من مبشرات التاريخ عامة ، وتاريخنا خاصة -الذى يبدأ بسيرة النبى ﷺ - : حقيقتان كبيرتان فى غاية الأهمية فى موضوعنا الذى نبحثه .

❋ ❋

● نزول النصر أحوج ما نكون إليه :

الحقيقة الأولى : أن النصر لا يأتى من عند الله إلا عندما يكون الناس أحوج شىء إليه ، وعندما يبرأ الناس من حولهم وقوتهم ، ويلوذون بحول الله تعالى وقوته ، وعندما تغلق الأبواب فى وجوههم إلا بابه ، وتنقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه ، هناك يدعون دعاء المضطرين ، ويلجئون إليه لجوء المفتقرين . وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه .

رأينا ذلك فى هجرة النبى ﷺ ، وقد لجأ إلى الغار ، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر ، وقد بحث المشركون عنهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقًا على صاحبه وعلى دعوته : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

وقد قص علينا القرآن كيف نصر الله رسوله فى ذلك اليوم ، وبأى جند نصره . يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِى اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٤٠

ورأينا ذلك النصر فى يوم بدر ، وقد كان المسلمون أقل من المشركين عددًا (كانوا أقل من ثلثهم) وأضعف عُدَّة (كان مع المسلمين فرسان ، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعدادًا وتهيؤا للحرب من الناحية النفسية ، فقد خرجوا من بيوتهم للعير لا للنفير ، فلم يكن القتال فى نيتهم ، وفى هذا يقول القرآن :
﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (١) .

ومع هذا كان النصر للمؤمنين ، حين استغاثوا بالله فأغاثهم :
﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ، وكان الرسول ﷺ يدعو ربه فى ذلك اليوم ، ويلح فى الدعاء ، يقول : « اللهم أنجز لى ما دعوت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض بعد اليوم » !! وما زال يدعو حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وأبو بكر يقول له : والله يا رسول الله لينصرنك الله ، وليبيضن وجهك !

---

(١) الأنفال : ٥ ، ٦   (٢) الأنفال : ٩ ، ١٠

لقد كانت يد الله الواحد القهار هى التى تدير المعركة من فوق سبع سموات ، هو الذى رتبها ، وهيأ مكانها وزمانها : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّم لاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ، لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبى ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل فى وجوه القوم ، وكانت وراء أيدى المؤمنين ، وهى تقتل المشركين كما قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِـنَّ اللهَ رَمَى ﴾ (٢) .

ومن هنا امتن الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم فى بدر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم الخندق ، وقد اشتد الكرب على المسلمين ، حين غزاهم المشركون فى عقر دارهم ، وحاصروهم حصارًا شديدًا ، وحفروا الخندق ليحميهم من هجومهم ، وغدر بهم اليهود وانضموا إلى المهاجمين . وقد وصف القرآن حال

---

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) الأنفال : ١٧ (٣) آل عمران : ١٢٣

المسلمين المادية والنفسية فى هذا الوقت العصيب فقال : ﴿ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (١) .

وقد كشف المنافقون عن أقنعتهم ، وقال منهم ما قال : مما سجله عليهم القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِنهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ (٢) .

فى هذه المحنة الخانقة ، وفى تلك الظروف الحالكة ، جاء نصر الله تعالى ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٣) .

وقال أيضًا : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٤) .

---

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١
(٢) الأحزاب : ١٢ ، ١٣
(٣) الأحزاب : ٩
(٤) الأحزاب : ٢٥

وفى غزوة حُنَيْن ، كان المسلمون جيشًا كبيرًا ، وقد فتحوا مكة ، وانتصروا على قريش فغرتهم كثرتهم ، واعتزوا بعددهم ، فلقّنهم الله درسًا بليغًا حتى يفيقوا ، ويعلموا أن النصر من عند الله ، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب ، ومن نصره الله فلن يغلب أبدًا .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على عباده المؤمنين ، حين تضيق بهم الحيل ، وتخذلهم أسباب الأرض ، فيمدون أكفهم إلى السماء .

وهذا أمر ثابت فى تاريخ الرسالات كلها ، وفى تاريخ الرسل جميعًا ، كما بين ذلك القرآن فى قوله فى أواخر سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) التوبة : ٢٥ - ٢٧ (٢) يوسف : ١١٠

● قوة الأمة عند الشدائد :

والحقيقة الثانية التى عرفناها من تاريخنا : هو المخزون النفسى والروحى الكبير ، الذى تدخره الأُمَّة ، ولا يبرز إلا فى المحن والخطوب .

إن التاريخ يحدثنا أن فى الإسلام (قوة ذاتية) مخبوءة ، لا تبرز إلا عند حلول الشدائد بساحته ، وإحاطة المحن بأمته . فهناك نراه أصلب ما يكون عودًا ، وأعظم ما يكون صمودًا ، وأشد ما يكون قوة ، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأمته ، وإبراز ما خبئ من قوته وقدرته ، فإذا هو يقاوم فيصمد ، بل يغالب فيغلب ، وإذا الضعف الظاهر الذى أطمع الناس قد استحال إلى قوة ، بل إلى قوة قاهرة منتصرة .

رأينا ذلك فى فجر تاريخ الإسلام : فى يوم بدر ، حيث انتصرت القلة على الكثرة ، والضعف المادى على القوة ، وامتن الله على المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن

---

(1) آل عمران : ١٢٣

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

* *

● في حروب الردة :

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت قبائل العرب - فيما عدا المدينة ومكة والطائف - وظهر أدعياء النبوة الكذبة من كهنة العرب ، وتبعهم قبائلهم عصبية لهم ، على حد قولهم : كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! فكان مسيلمة وسجاح والأسود العنسي وطليحة الأسدى ، وغيرهم ، وانضم إليهم مانعو الزكاة ، الذين أقروا بالصلاة ولم يقروا بالزكاة ، وكانت فتنة عارمة ، ومحنة قاسية ، جعلت بعض الصحابة يقول لأبى بكر : يا خليفة رسول الله ؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا ، الزم بيتك ، وأغلق بابك ، واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين !!

ولكن أبا بكر الرجل الرقيق البكاء أبى أن يستسلم ، وثبت كالطود ، وزأر كالليث ، وجهز أحد عشر جيشًا لحرب المرتدين ومانعى الزكاة ، ولما ناقشه عمر فى مقاتلة ما نعى الزكاة . وقد قال النبى ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : (لا إله إلا الله)

---

(١) الأنفال : ٢٦

فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم **إلا بحقها** وحسابهم على الله » . وهنا قال له أبو بكر فى يقين وقوة : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقًا (عنزة صغيرة) - وفى رواية : عقالاً - كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .

وقامت معارك بين الصحابة - على قلتهم - وبين المرتدين ومانعى الزكاة على كثرتهم - انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين ، مكفرين عن ردتهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين فى قتال فارس والروم . وكانوا من أعظم الناس بلاء فيه ، يعوضون عما بدر منهم فى حق الإسلام .

وعادت جزيرة العرب حصنًا ومعقلاً للإسلام ، على امتداد القرون .

* *

● فى الحروب الصليبية :

وظهرت القوة الكامنة فى الإسلام مرة أخرى ، حين زحف عليه الغرب المسيحيى بقضه وقضيضه ، وثالوثه وصليبه ، فى تسع حملات شهيرة عرفت باسم (الحملات الصليبية) .

جاء الغرب الصليبى الزاحف يحمل فى صدره حقدًا أسود على الإسلام وأهله ، وطمعًا فى خيرات بلاده ، وأملاً فى تحطيم قوته وميراث ملكه ، ساعده على ذلك غفلة المسلمين ، وغرق حكامهم فى الشهوات . وتفرقهم من أجل الدنيا ، وحرصهم على الإمارة ، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أن يبيع أحدهم أخاه ويشترى الدخيل الغريب ، وأن يبيع أمته ويشترى إمارته .

فلا غرو أن ينتصر الصليبيون فى أول الأمر ، وأن يقيموا لهم ممالك وإمارات فى ديار الإسلام ، بالتعاون مع الخونة من الأمراء ، وأن يدخلوا بيت المقدس ، بعد مذبحة قتل فيها عشرات الألوف ، وجرت الدماء للركب .

وبقى الصليبيون فى الشام نحو مائتى عام ، وبقى بيت المقدس فى أيديهم تسعين سنة كاملة .

ثم هيأ الله للإسلام رجالاً صمموا على أن يقاوموا العدوان ، وأن يستردوا الأرض المغتصبة ، ويستعيدوا الحق السليب ، فكان عماد الدين زنكى ، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد ، الذى كان يشبه بالخلفاء الراشدين فى سيرته وشجاعته والتزامه وعدله ، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبى ، الذى كتب الله له النصر على الصليبيين فى معركة (حطين) الشهيرة ، وفى معركة فتح بيت المقدس ، وإعادته إلى أمة الإسلام ، وكانت بعد ذلك

معارك فى مصر ، انتهت بأسر لويس التاسع فى (دار ابن لقمان) بالمنصورة .

وكل هذا دليل على أن الأمة الإسلامية قد تنام ، وقد تمرض ، ولكنها لا تموت ، ما دام يجرى فى عروق أبنائها دم العقيدة ، وما دام فيها من يقودها بـ (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .

* *

● فى حروب التتار :

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدى الصليبيين الأوربيين النصارى ، تعرض للغزو من الشرق على أيدى التتار الوثنيين . الذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وقد ظهروا والمسلمون ضعفاء متفرقون ، ليس لهم قيادة قوية تجمع صفوفهم ، ولا نهضة إيمانية توقظ شعوبهم ، والتتار كانوا فى ذلك الزمن قوة عسكرية عاتية ، لها قيادة مهيبة مطاعة ، لا يقف فى وجوههم أولئك الملوك الممزقون ، والأمراء المفرقون ، والولاة المترفون ، فسقطت البلاد فى أيديهم بلدًا بلدًا ، وفر الأمراء من أمامهم - أو خضعوا لهم - أميرًا أميرًا ، والنصر يغرى بالنصر ، والظفر يدفع إلى الظفر ، حتى كان المثل السائر فى ذلك الزمان :

إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق ! إنها أسطورة (القوة التى لا تقهر) تتكرر ما بين عصر وآخر .

وأخيرًا زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام ، وأرقى بلاد الإسلام ، فسقطت تحت ضرباتهم وبمعونة من خان ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وسالت الدماء أنهارًا ، وأسود نهر دجلة من كثرة ما ألقى فيه من كتب الحضارة ، التى سال مدادها ، حتى أحالت ماء النهر أسود حالكًا .

ولم تكد تمضى سنوات ، حتى تحققت معجزة الإسلام مرتين : انتصر الإسلام على التتار عسكريًا ، فى معركة من معارك التاريخ الحاسمة ، وهى معركة (عين جالوت) بقيادة القائد المملوكى الصالح سيف الدين قطز ، الذى حقق الله على يده النصر ، ومعه جنود مصر ، فى يوم من أيام الله فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أى بعد سقوط بغداد بسنتين فقط .

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنويًا ، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام ، وإذا سيف الغازى المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء ، وإذا الغالبون يدخلون أخيرًا فى دين المغلوبين !! على خلاف ما هو معروف ومألوف ، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائمًا بتقليد الغالب المنصور . .

* *

● حروب التحرير فى العصر الحديث :

وفى العصر الحديث ، رأينا الجهاد البطولى ، ضد الغزاة المستعمرين ، فى سائر ديار الإسلام : جهاد الأمير عبد القادر الجزائرى ضد الفرنسيين فى الجزائر ، والأمير عبد الكريم الخطابى ضد الأسبان فى المغرب ، والبطل عمر المختار ضد الطليان فى ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين ، مروراً بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة ، والقناة ضد الإنجليز .

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم - أمثال برنارد لويس فى كتابه (الغرب والشرق الأوسط) - أن الحركات الدينية كانت هى قائدة معارك التحرير فى سائر البلاد الإسلامية ضد الاستعمار ، حتى حركة كمال أتاتورك نفسها ، ولكن المؤسف أن الإسلاميين يزرعون ، والعلمانيين هم الذين يحصدون ، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين !



مبشرات من الواقع

وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مبشرات بالقوة الذاتية للإسلام ، والقوى المكنونة فى كيان هذه الأمة ، والتى تبرز عند الشدائد ، وعندما يوجد من يفجرها .. ونظرنا إلى واقع الأمة فى هذا العصر ، وجدنا مبشرات أخرى كثيرة ، جعلت هذه الأمة تثبت فى وجه الأعاصير ، ولا تذوب فى غيرها ، كما يذوب الملح فى الماء ، كما كان يراد لها ، بل جاهدت وقاتلت حتى تحررت من مستعمريها ، وعادت تشعر بكينونتها ، وتكتشف ذاتها من جديد ، رغم ما وضع لها من أغلال تكبلها ، وما صنع لها من أقفاص حديدية أو ذهبية تحبس داخلها .

* *

● **أمراض الواقع وآفاته :**

لا أستطيع أن أجحد ما يمور به واقع الأمة من أمراض وآفات عقلية ودينية وخلقية وعملية ، شكا منها الدعاة والمربون والمصلحون، ولا يزالون يشكون .

فقد ضعف الدين بين الغالى فيه والجافى عنه ، كما قال الإمام الحسن البصرى ، أو بين (جامد وجاحد) ، كما قال أمير البيان

شكيب أرسلان . ذاك يصد الناس عن الإسلام بجموده ، والآخر يفتنهم عنه بجحوده .

وضعف التوحيد الأصيل - الذى هو جوهر الإسلام وروح الوجود الإسلامى كله - بين خرافات العرّافين ، وأباطيل الدجالين بين شرك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات ، وشرك الخواص الذين يكادون يعبدون قصور الأحياء !

وضعف الجانب الربانى فى الحياة الإسلامية ، حين وجدنا فى المسلمين من يضيع الصلوات ، ويتبع الشهوات ، وحين قال : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . . . . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وظهر التصوف المنحرف ، والتصوف المحترف ، وقل التصوف الحقيقى المعبر عن روحانية الإسلام ووسطيته ، والذى عرّفوه بأنه : الصدق مع الحق ، والخُلُق مع الخَلق (٢) . وغلبت (رسوم) التصوف على (حقائقه) من ذكر باللسان من نوع ما قالت رابعة :

---

(١) المؤمنون : ١ - ٩

(٢) قد بدأنا بحمد الله وتوفيقه فى كتابة سلسلة عن التصوف الملتزم أو (فقه السلوك فى ضوء القرآن والسُّنَّة) ظهر منها ثلاثة أجزاء : الحياة الربانية والعلم . . النية والإخلاص . . التوكل . . وأسأل الله العون على إتمامها .

استغفار يحتاج إلى استغفار منه . ومن أوراد موضوعة ، وحركات مصنوعة ، لا ترقق القلب ، ولا تذكر بالرب ، ولا بالدار الآخرة .

وضعفت الآداب والتقاليد الإسلامية الأصيلة فى حياتنا الاجتماعية، وغلب على الكثيرين نوعان من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام : تقاليد موروثة من رواسب عصور الجمود والتقليد والتخلف ، ألصقت بالإسلام ، وليست منه فى كثير ولا قليل ، وتقاليد وافدة ، جاءت بها الحضارة الغربية الغازية ، بما غلب عليها من مادية الفكر ، وعلمانية التوجه ، ونفعية السلوك ، كان لها أثرها فى إشاعة التحلل ، وترسيخ الفردية والأنانية .

وأبرز ما رأينا ذلك فى (قضية المرأة) فوجدنا من تغطى وجهها حتى لا يرى منه شىء ، وقد تسمح - أو يسمح لها - بظهور عينيها أو إحداهما ! ومن تخرج إلى الطريق مكشوفة الذراعين والساقين والنحر ، من « الكاسيات العاريات المميلات المائلات » . ووجدنا من يحرم الخاطب من رؤية مخطوبته - وهو مأمور بها شرعًا - ولا يراها إلا ليلة زفافه بها ، وهى تحرم من رؤيته كذلك . . ومن يترك له الحبل على الغارب ، ليتأبط ذراعها ، ويذهب بها إلى حيث يشاء فى المسارح والسينمات أو المتنزهات والخلوات !

وضعف العقل الإسلامى ، فلم يعد يفكر ويبتكر ، ويضيف الجديد إلى الحضارة ، ويعدل القديم منها ، بل غدا عالة على غيره ، سواء

كان هذا الغير (المقدَّسين فى التراث) أم كان (المقدسين فى الغرب) . وطغى الجمود والتحجر على جنبات الحياة ، فغاب النظر فى العقيدة ، والاجتهاد فى الفقه ، والإبداع فى الأدب ، والابتكار فى الصناعة ، وذاعت كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما فى الحياة العقلية الإسلامية ، الأولى : ما ترك الأول للآخر شيئًا ! والثانية : ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

وانتشرت دعوى إغلاق باب الاجتهاد ! ولا يُدرى : من أغلقه ؟ ومن يملك إغلاق باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ !

ومن هنا تأخرت الأمة الإسلامية ، التى كانت الأمة الأولى ما يقارب الألف عام ، وأضحت فى مؤخرة القافلة بعد أن كانت فى مقدمتها ، فكل أقطارها داخل فى مسمى (البلاد النامية) أو (العالم الثالث) ، وبعضها لو كان هناك عالم رابع لنسبوا إليه ، لما يعانون من شدة التخلف والفقر والمرض والجهل والأمية .

وضعف الخلق الإسلامى الأصيل ، بغياب (شُعب الإيمان) التى بين لنا الرسول الكريم أنها (بضع وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) ، وشاعت أخلاق النفاق فى مجتمعاتنا ، فوجدنا من « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وانتشر الترف المدمر فى طبقة عاطلة يسر لها كل شىء ، والبؤس القاتل فى طبقات كادحة تتعب وتلهث ، ولا تكاد

تجد شيئًا ، وانقلبت القيم الاجتماعية الإسلامية بظهور الغنى بغير جهد ، وظهور ملوك البترول ، ولصوص الانفتاح ، وأصبحت الصورة الكاريكاتورية للمسلم : عربى فى خيمة ، وبجواره بئر بترول ، وفتاة جميلة !

وكثر الظلم فى العالم الإسلامى : ظلم الحكام المحكومين ، وظلم الأغنياء الفقراء ، وظلم الأقوياء الضعفاء ، وظلم أرباب العمل العمال ، وظلم الرجال النساء ، والظلم لا تقوم عليه دولة ، ولا تنهض به أمة .

وضعفت الشورى - بل ربما غابت تمامًا - فى حياة المسلمين السياسية ، وحكم الناس فرعون وهامان وقارون ، بالحديد والنار تارة ، وبالغش والتزوير طورًا ، ولم يعد أئمة المسلمين خيارهم « الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم (أى تدعون لهم) ويصلون عليكم » ، بل كل متكبر جبار ، مطبوع على قلبه ، لا يخاف الله ولا يرحم الناس ، وبعضهم مطبوع على عقله كذلك ، فلا هو يفقه فى الدين ، ولا هو يعقل فى الدنيا ، ومع هذا إذا استفتى الناس فى اختياره حصل على « التسعات » الأربع أو الخمس (٩٩٩ و ٩٩٪) التى أمست مثار سخرية العالم ، وبات الحاكم فى البلاد العربية لا ينزعه عن كرسيه إلا الموت أو الاغتيال أو الانقلاب عليه !

* *

● الواقع المريض لا يستمر :

ولكن هذا الواقع الذى لا ينكر لم يترك يؤثر فى المسلمين دون مقاومة ، فهذا مناف لطبيعة الحياة الإسلامية ، وطبيعة الرسالة الإسلامية ، وطبيعة الأمة الإسلامية ، التى لا تجتمع على ضلالة ، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله ، ممن يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا يزال يبعث الله فيها أو يبعث لها ما بين قرن وآخر من يجدد لها دينها . وهو ما أثبته التاريخ المقروء ، كما أثبته الواقع المستقرأ .

❋ ❋ ❋

● بين الأمس واليوم :

ومن قارن بين حال الأمة منذ قرن مضى ، وحالها اليوم ، بل من استقرأ حالها منذ خمسين سنة ، أو ثلاثين سنة ، وتأمل حالها فى هذين العقدين من الزمان ، سيجد أن أوضاعها تغيرت - إلى حد كبير - إلى ما هو أحسن وأمثل . وهذا أمر يلاحظه ويشهد به كل مراقب يقظ للأحداث ، فى كل جانب من جوانب الحياة ، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات ، الفكرية والأخلاقية والسلوكية .

وأكتفى هنا بشهادة رجل غربى مثقف ، اهتدى إلى الإسلام عن بصيرة ، وآمن به عن بينة ، وهو الدكتور : مراد هوفمان ، صاحب كتاب (الإسلام كبديل) ، وإنما آثرت شهادته ، لأنه رجل واسع

المعرفة ، يعرف الألمانية - لغته الأصلية - والإنجليزية والفرنسية ، وعمل سفيرًا لبلاده - ألمانيا - فى الجزائر والمغرب ، ويتميز بنظرته (الواقعية) ، ونزعته (النقدية) ، حتى قال عن واقعيته : إنها الواقعية القاسية . وقال عن نقده : اضطررت لأن أكون ناقدًا شديدًا لكل من الغرب والعالم الإسلامى .

يقول هوفمان فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) وفى فصله الثانى تحت عنوان (قليل من التفاؤل) :

١ - قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن ، فماذا نرى إذا فركنا أعيننا قليلاً ؟ هل يتقدم الإسلام حقيقة ؟ أم أنه - إذا تركنا المظاهر - ينحدر ؟ أو أن المسلمين يترددون على حواف التاريخ ، فريسة سهلة للاستعمار المادى والعقلى ، كما هو حالهم لعدة قرون ؟

دعونا هذه المرة نسمع من المتفائل أولاً :

٢ - يجب على المرء أن يعرف كيف كانت الحال بمكة والمدينة فى القرن السابق ، ليتعرف على التقدم الحادث . لدينا أوصاف يُعتمد عليها من الحجاج الغربيين أمثال : المسلم السويسرى بروكارت الذى عاش فى مكة والمدينة ستة أشهر فى ١٨١٤/ ١٨١٥ [١] ، وقد أيد

(١) جوهان لودفيج بروكارت « مكة والمدينة » برلين ١٩٩٤ .

رواية بروكارت كل من المسلم البريطانى سير ريتشارد بيرتون الذى زار مكة والمدينة فى ١٨٥٣ [١] ، والألمانى غير المسلم هيترش فون مالتزان الذى عاش فى مكة فى ١٨٦٠ [٢] .

اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة .. القذارة ، انعدام الأمن ، انتشار الخرافات .. وصدق أو لا تصدق .. شرب الخمر والدعارة حول الحرم .. بل وحتى داخله أحيانًا !

لم تقم الصلاة بانتظام ، حتى بين الحجاج ، الذى هبط عددهم إلى ٧٠٫٠٠٠ عام ١٨١٤ (حسب تقدير بروكارت) ثم إلى ٣٠٫٠٠٠ عام ١٨٦٠ (حسب تقدير مالتزان) .

وفى الحقيقة ، بعد غزو نابليون لمصر ، وبعد الانهيار والتمزق المتتالى للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تمامًا ، وفى غضون حياتهم ! فدرسوا الإسلام كحضارة على وشك الاندثار ، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل . وبهذه الروح ، استطاع المستعمرون الفرنسيون تقدير عبد القادر [٣] ، البطل

---

(١) ريتشارد بيرتون « حكايات شخصية لحاج بالمدينة ومكة » نيويورك ١٩٦٤ .

(٢) هيترش فون مالتزان « حجى لمكة » توينجن ١٩٨٢

(٣) برونو إينه (عبد القادر) ١٩٩٤

الجزائرى ، الصوفى ، رجل الدولة ، كشخصية فلكلورية غريبة ، ذات قليل من الإزعاج ، حتى الشخصيات التى تعاطفت مع الإسلام ، جوتة (١٨٣٢) على سبيل المثال ، أعجبه تشدد الإسلام فى وحدانية الله ، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامى [١] .

٣ - من يحج أو يعتمر اليوم ، يجد التقدم هائلاً عن حالة القرن الماضى ، فقد تم توسيع الحرم المكى والحرم المدنى بجمال واقتدار ليسعا ٤٨٠٫٠٠٠ ، ٦٥٠٫٠٠٠ حاج ، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحج ، والذين يحجون الآن طبقًا لحصص محددة لكل دولة لا تتعداها ، مُنعت الكحوليات ، السرقات قليلة ، النساء لا يدخلن البلاد منفردات ، والصلاة على مدار الساعة أمام أنظار العالم .

٤ - اختلف موقف المستشرقين من الإسلام ، منذ عشرينات القرن الحالى ، وكان ذلك بداية لتغييرات أخرى إيجابية ، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية ، بل تولته نخبة من الأكاديميين الأوروبيين ، منهم رينيه جينو (عبد الواحد يحيى) ، مارتن لنج ، تيتوس بروكاردت ، وليوبولد فايس (محمد أسد) . ومن بين المستشرقين الذين لم

---

(١) أحمد ثون دنفر (الإسلام وجوته) ميونيخ ١٩٩٠ ، ١٩٩٤ ، الطبعة الثالثة .

يعلنوا إسلامهم ، هناك چاك بيرك ، لويس مانيون ، ودنيس ماسون، آناماريا شمل ، الذين بدوا على وشك الشهادة .

وكثير من زملائهم المستشرقين ، تحلوا فى دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتناق بدلاً من الاشمئزاز والضيق .

وفى نفس الوقت ، منذ الثلاثينات ، وضعت حركات إحياء الإسلام - من القاعدة - فى معظم البلاد الإسلامية ، الإسلام فى الأجندة السياسية للبلد ، ونموذج لذلك حركة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا [١] فى مصر ، ودعاتها من أمثال سيد قطب (١٩٦٦) ، ومحمد الغزالى (١٩٩٦) كذلك أبو الأعلى المودودى (١٩٧٩) .

لم يجئ الإحياء من القاعدة فقط ، فالحركة الوهابية والحركة السنوسية ، وإلى حد ما حركة محمد عبده ، جاءت من أعلى ، وانتشرت بفضل الإمكانيات المادية ، ومن أغنى أغنياء العالم اليوم سلطان بروناى ، والملك فهد ، والأمير زايد ، مما يعطى الدعوة الإسلامية ثراءً فعالاً . فكر - على سبيل المثال - فى ملايين النسخ من القرآن الكريم التى توزع مجانًا ، كذلك فى مجمع فهد لطباعة وتوزيع الكتب الإسلامية فى المدينة .

---

(١) (رسائل حسن البنا) بيركلى ، لوس أنجلوس ١٩٧٨ ، ما زالت مادة رئيسية .

والخلاصة ؛ أن ذلك التطوير ، نُظر إليه كتهديد أصولى ، مما جعل الإسلام يحتل القمة فى ما يشغل الإعلام العالمى فى الربع الأخير من القرن الحالى .

٥ - لا يتوقع اليوم أحد أن يختفى الإسلام ، ولكن أن يمتد ، بل وينفجر ! ويضع جنرالات الناتو فى حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب ، ولكن بين الشمال والجنوب ، فالإسلام هو العدو المتنامى المرتقب .

يرجع بهذا الخوف المسلمون المهاجرون عند عودتهم لبلادهم ، أصبح تعداد المسلمين فى كل من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين . وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالى عدد المسلمين فى العالم بـ ٩٩٠ر٥٤٧ مليون - وهو رقم متحفظ - يسببون الخوف والهلع [١] .

تنشر المساجد فى العالم كله بين لوس أنجلوس ، روما ، زغرب، حتى موسكو وبكين ، وفى قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية فى الأندلس ، أسس المسلمون الإسبان فى ١٩٩٤ الجامعة الإسلامية الدولية (آفيروس) وليس بعيدًا عن الجامع القديم الرائع

---

(١) انظر : مقالة (عدد المسلمين فى العالم) د . ل / دورية ، هامبورج، فبراير ١٩٩١ ، يقول القرضاوى : والمعروف أن المسملين فى العالم اليوم أكثر من مليار وربع . ولكن إحصاءات الغربيين أبدًا تحاول التقليل من عدد المسلمين لأسباب لا تخفى على اللبيب .

فى قرطبة ، يرفع الآذان ثانيًا للصلاة ، يا لها من إثارة أن يحدث هذا بعد خمسمائة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس !

٦ - فى التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد (١٤١٢ / ١٩٩٢) فى كتابه الهائل المشهور (الإسلام فى مفترق الطرق) - الذى كتبه فى دلهى عام ١٩٣٤ - تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية التى تشمل الاتحاد السوفييتى ، وبمنهاج مخالف لمنهاج السلفيين الاعتذارى والتبريرى أمام الغرب ، بين أن الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة .

رأى أسد الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بين القوى المادية فى الحضارة الغربية .

توقع أسد أن يجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرين الغربى والشرقى ، ويحط بالحضارة الغربية المادية - المملوءة زهوًا بالنفس - حتى يتطلع الغرب - مرة ثانية - إلى الحقيقة الروحية « وتصبح الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة » والتأكيد هنا من عندى .

بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدة ستين عامًا ، فبعد الحرب العالمية الثانية ، بدلاً من أن ينهار الغرب ، انقسم إلى معسكرين ، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة .

واليوم ، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ ، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب ، تمر المسيحية بتغيير

فى المشروع ، وما كان يسمى (مشروع التحديث) يتساقط أمام أعيننا .

بدأ منظرو وعلماء الغرب يشكّون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة أ . هـ [1] .

* * *

● استمرار حركة الإحياء والتجديد :

إن من خصائص الإسلام : أن حركة الإحياء والتجديد فيه من الداخل مستمرة ، ولا تنقطع حتى تقوم الساعة ، بوساطة (الورّاث الحقيقيين) لعلم النبوة ، الذين يقدمونه للناس خالصًا غير مشوب ، متكاملاً غير مجزأ ، بيّنا غير غامض (ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) [2] .

ولا غرو أن هيأ الله لهذا الدين ، رجالاً يجددونه ، ويوقظون أمته، ويصنعون أجيالاً على هداه ، ولم تضع جهودهم سدى ، ولم تذهب ثمرات البعث الإسلامى ، وحركات الإحياء والتجديد ،

---

(١) عن كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) لمراد هوفمان ترجمه عادل المعلم، نشر دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٥ ص ١٥ - ١٨

(٢) الحديث رواه البيهقى وغيره من عدة طرق ضعيفة ، وقواه ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) ، وقد تكلمنا عنه فى كتابنا : (كيف نتعامل مع السنة النبوية) ص (٢٨) نشر دار الوفاء بمصر .

التى لم تكن - كما توهم بعض الناس - صيحة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، بل أنشأت بفضل الله تعالى وتوفيقه ، صحوة إسلامية كبرى ، فى سائر ديار العرب والإسلام ، بل حتى خارج ديار الإسلام ، حيث الأقليات والجاليات الإسلامية فى الغرب والشرق ، صحوة أيقظت العقول والقلوب ، والعزائم ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، والأمل فى انتصاره بعد أن ظن من ظن أن راية الإسلام قد سقطت ، وأن ظله قد تقلص ، وأن أمته أمست فى مؤخرة القافلة وأن العلمانية قد تغلغلت بين أبنائه .

وزلزلت القوى المعادية للإسلام زلزالها ، فطفقت تكيد للصحوة ، تتآمر عليها ، وتتهمها بما تبرأ منه ، وتدعو إلى ضده ، مستغلة انحراف بعض فصائل الصحوة - للأسف - فى الفهم أو فى السلوك ، لضرب الصحوة كلها ، وقطع الطريق عليها، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

وإذا كان بعض الناس يحاول أن يهون من قوة التيار الإسلامى ، ويقلل من شأن الصحوة الإسلامية ، مهولاً من قوة التيار العلمانى المعادى للإسلام ، وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة ، فأعتقد أنهم مخطئون فى تقديراتهم ، أو هم يعلمون الحقيقة ، ولكنهم يتجاهلونها عمدًا لهوى فى أنفسهم .



(١) الأنفال : ٣٠

● الصحوة الإسلامية وآثارها فى الحياة الإسلامية :

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر (الصحوة الإسلامية) فى حياتنا المعاصرة ، تلك الصحوة التى شرقت وغربت ، وأضاءت بنورها ديار الإسلام ، ثم ذهبت إلى حيث يوجد المسلمون خارج أوطان الإسلام ، بين الأقليات الكبيرة والصغيرة ، والجاليات المنتشرة فى أنحاء العالم ، وهدى الله بها ملايين الشبان والشابات .

أيقظت هذه الصحوة العقول بالوعى ، وملأت القلوب بالإيمان والحماس ، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل ، وأثرت على النساء كما أثرت على الرجال ، وغيرت من مفاهيم الأجيال الجديدة، فنقلتها من التفكير العلمانى إلى التفكير الإسلامى ، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسوله ، ومن التبعية إلى التحرر ، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام : عقيدة وشريعة ، وفكرًا وسلوكًا ، ورسالة وحضارة . رجونا أن يكون (جيل النصر المنشود) .

أثبتت هذه الصحوة وجودها على الصعيد الفكرى بما احتوته (المكتبة الإسلامية) المعاصرة من شتى الدراسات فى الجوانب الإسلامية المتعددة ، وكان الكتاب الإسلامى هو الأول فى سوق التوزيع ، وسجلت مئات الأطروحات للماچستير والدكتوراة فى مختلف جوانب الثقافة الإسلامية : فى الاقتصاد والسياسة والقانون والتربية والتاريخ ، وشتى العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السلوكى ، فامتلأت المساجد بالمصلين والمصليات ، وخصوصًا من الشباب ، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحج والعمرة ، وعادت المرأة المتبرجة إلى الحجاب طوعًا .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الاقتصادى ، فنشأت البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية ، وتوسعت فى أقطار كثيرة من العالم الإسلامى .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السياسى ، فأصبح هناك تيار شعبى هائل ، ينادى بالعودة إلى الإسلام ، وتطبيق شريعة الإسلام ، وقامت دولة للإسلام الشيعى فى إيران ، وللإسلام السنى فى السودان ، وأوشكت أن تقوم دولة فى الجزائر ، لولا أن قطعوا الطريق عليها ، وحرموها أن تقطف ثمار اختيارها .

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الجهادى ، فانتصرت فى أفغانستان على الاتحاد السوفيتى [1] ، وفى البوسنة والهرسك على الوحش الصربى ، وزلزلت الانتفاضة وأشبالها ، والمقاومة الإسلامية ورجالها ، الكيان الصهيونى : الدولة التى لا تقهر ، والشوكة التى لا تكسر !

---

(١) ولكن مما يؤسف له : أن إخواننا الأفغان ، قد انتصروا على الاتحاد السوفييتى - إحدى القوتين الكبريين فى العالم - ولكنهم لم ينتصروا على أنفسهم ! هداهم الله وأصلح ذات بينهم .

هذه الظواهر وغيرها حركت غرائز الشر فى القوى المعادية للإسلام وأمته وصحوته ، فاجتمعت على الكيد له ، والمكر به ، والتربص بصحوته ، وقد قال إسحاق رابين فى مؤتمر الدار البيضاء: إن أعداءنا الكونيّين ثلاثة : الأصولية ، والجوع ، والمخدرات ! والحقيقة أنه ذكر الجوع ، والمخدرات للتغطية وذر الرماد فى العيون ، وإنما قصده الأساسى : الأصولية ، وإن شئت الترجمة الحقيقية لها فهى (الصحوة الإسلامية) !

وإذا كنا نعيش فى الزمن الإسرائيلى ، زمن السامرى ! وإسرائيل هى الآمر الناهى فى المنطقة ، وقد عملت بمهارة على (تهويد العقل العربى) وكذلك (تهويد الإعلام العربى) فلا تعجب إذا رأيت الحرب تعلن على الصحوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، تحت عناوين شتَّى ، وكل ذلك لخدمة هدف واحد ، هو : بقاء إسرائيل ، وسيادة إسرائيل ، وتوسع إسرائيل ، وهيمنة إسرائيل ، ولكن الصحوة باقية إن شاء الله .

* *

● التيار الإسلامى أقوى وأرجح فى الميزان :

أجل إن الصهيونية - وحليفتها الصليبية - تخططان لضرب الإسلام وصحوته ، وتمدان التيارات المعادية للإسلام بكل أسباب القوة والانتشار والنفوذ .

ولكننا إذا تعمقنا فى تقدير وزن القوى التى لنا والتى علينا ؛ وجدنا كفة التيار الإسلامى - بحمد الله - أرجح وأثقل فى الميزان .

(أ) فنحن بالإسلام نملك رصيدًا ضخمًا ، لا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك ، إن وراء الإسلام (قوة الجماهير) الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمّدها ، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله ، ويضع يدها فى يد رسول الله ﷺ وعندئذ تبذل المال عن رضا واغتباط ، والروح عن طواعية وارتياح . إن هذه الأمة متدينة بفطرتها ، وبتاريخها ، والدين هو مفتاح شخصيتها ، وصقل مواهبها ، وصانع بطولاتها ، وسر انتصاراتها الكبرى ، وهى أسرع استجابة إليه ، والتفافًا به ، من أى دعوة دخيلة جاء بها غاصب ، محتل ، أو بذر بذورها طامع متربص .

وقد جربنا أثر ذلك فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ (٦/ ١٠/ ١٩٧٣) م ، وظهر أثر (الله أكبر) فى الميدان .

(ب) ونملك كذلك (قوة المنهج) الذى ندعو إليه ، قوة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة ، نملك (قوة الإسلام) التى تتمثل فى وضوحه وشموله ، وعمقه ، واتزانه وتأثيره . الإسلام : عقيدةً تخاطب العقل ، وعبادةً تزكى النفس ، وأخلاقًا تلائم الفطرة ، وأحكامًا تحقق التوازن والعدل ، تطارد المفاسد ، وتجلب المصالح ، وتعطى كل ذى حق حقه ، فلا طغيان لفرد على مجتمع ، كما هى

فلسفة الرأسمالية ، ولا لمجتمع على فرد ، كما هى فلسفة الماركسية ، بل توزان وتكامل ، بلا طغيان ، ولا إخسار فى الميزان .

ومن أبرز معالم القوة فى هذا الإسلام : أنه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين ، وهذا العنصر الإلهى فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير ، ومن العجز والقصور ، الذى يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم .

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس ؛ لأنه انقياد من الإنسان لربه ، الذى خلقه فسواه ، وأمده بنعمته ، وغمره برحمته ، والذى يرجو مثوبته ، ويخشى عقابه ، على عكس المبادئ الوضعية ، التى لا يطيعها الإنسان إلا خوفًا أو طمعًا ، والتى يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع .

ومن أسباب قوة الإسلام : أنه منهج نابع من أعماق الأمة ، وليس دخيلاً ولا طارئًا عليها ، بحيث تحتاج إلى ضغط مادى ، أو معنوى حتى تسيغه وترضى بتجرع كأسه .

(جـ) إن هذه القوة المذخورة فى منهج الإسلام ، لا يعادلها إلا القوى المكنونة فى حنايا أمة الإسلام .

تلك القوى التى انفجرت يومًا والمسلمون فى ضعف وتفرق وخذلان ، فحطمت الصليبيين فى (حطين) ، وهزمت التتار

فى (عين جالوت) ، وأسرت لويس التاسع فى (دار ابن لقمان) بالمنصورة . .

*　*

● القوى التى تملكها الأمة :

إن القوى التى تملكها أمتنا الإسلامية ليست بالهينة ولا اليسيرة ، إذا أحسنت توظيفها والاستفادة منها ، فهى فى الحق قوى كبيرة وهائلة .

١ - القوة البشرية :

أولى هذه القوى : القوة البشرية العددية ، فأمتنا تملك اليوم من البشر ما يزيد على المليار والربع من المسلمين المؤمنين بعقيدة التوحيد ، منتشرين فى قارات العالم الست .

صحيح أن العبرة بالكيف لا بالكم ، ولكن الكم له أهمية أيضًا ، وسنرى فى تقارير الغربيين كيف يخافون من تزايد أعداد المسلمين ، فى حين يعانون هم منذ مدة من تناقص النسل عندهم بصورة أصبحت تفزعهم .

إن الكثرة فى حد ذاتها نعمة ، وهى شرط لا بد منه لأى تفوق اقتصادى أو حضارى ، ولهذا تسعى الأُمم إلى تعويض هذا بالتكتل فيما بينها رغم اختلافها فى العروق واللغات والأديان ، والتاريخ .

ومن هنا ذكر القرآن فى معرض الامتنان والإنعام قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُم قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ (١) .

والشاعر العربى يقول : وإنما العزة للكاثر !

والشاعر الآخر يقول فى مقام الفخر بكثرة قومه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحرَ نملؤه سفينًا !

٢ - القوة المادية والاقتصادية :

وثانية هذه القوى : القوة المادية والاقتصادية ، فأمتنا تملك من المعادن والثروات المذخورة فى باطن الأرض ، والثروات المنشورة على ظاهرها ، والثروات المائية والبحرية ، ما لا تملكه أمة أخرى .

عندنا الأراضى الخصبة من السهول والوديان ، وعندنا الهضاب والجبال ، وعندنا البحار والبحيرات ، والأنهار العظام ، وعندنا العيون والآبار ، وعندنا مخزون المياه الجوفية ، وعندنا المعادن المهمة التى يحتاج إليها العالم ، ويكفى أن لدينا معظم مخزون العالم من النفط .

وموقعنا الجغرافى كذلك له قيمة كبيرة : استراتيجية وحضارية ، فهو ملتقى القارات ومنبع الحضارات ، ومهبط الرسالات السماوية الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام .

---

(١) الأعراف : ٨٦ .

٣ - القوة الروحية :

وثالثة هذه القوى التى تملكها أمتنا : القوة الروحية ، قوة الرسالة التى تؤمن بها ، وتدعو إليها ، وتحيا لها وتموت عليها : رسالة الإسلام العامة الخالدة ، التى ختم الله بها النبوات والرسالات .

فهى الرسالة التى تميزت بالربانية ، فمصدرها الله ، وغايتها إلى الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

نحن المسلمين وحدنا الذى نملك الوثيقة الإلهية الوحيدة التى تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشرية ، سالمة من كل تحريف وتبديل : القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتميزت هذه الرسالة كذلك بالنظرة الشمولية : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

وتميزت بنزعتها الأخلاقية ، حتى قال نبيها : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ (٢) النحل : ٩٠

(٣) رواه عن أبى هريرة : البخارى فى الأدب المفرد بلفظ : (صالح الأخلاق) رقم ٢٧٤ ، أحمد : ٢/٣٨١ ، الحاكم : ٢/٦١٣ ، وصحَّحه ووافقه الذهبى ، وذكره الألبانى فى الصحيحة برقم ٤٥ .

وتميزت بنزعتها الإنسانية والعالمية : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وتميزت بنظرتها الواقعية ، فشرعت للضرورات أحكامها ، وقدرت للإنسان أعذاره ، وشرعت الرخص والتخفيفات .

وتميزت بخصيصتها الوسطية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٢) ، فهى توازن بين المادة والروح ، بين العقل والقلب ، بين الدنيا والآخرة ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفرد والمجتمع ، بلا طغيان ولا إخسار .

والعالم أحوج ما يكون إلى هذه الرسالة ، لتنقذه من المادية المسرفة ، ومن النفعية المجحفة ، ومن الإباحية القاتلة ، ومن عصر الخوف والقلق والاكتئاب واليأس إلى عصر الأمن والسكينة والبهجة والأمل .

* *

• تحذيرات الأجانب من القوة المذخورة فى الإسلام وأمته :

إننا نحن المسلمين قد نجهل القوى المذخورة لديننا ، ولكن الأجانب الدارسين لطبيعة أمتنا ، ومذخور الطاقات فى شعوبنا ،

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) البقرة : ١٤٣

هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية ، يحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام ، يقول البروفسور « جب » فى كتابه : (وجهة الإسلام) : (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة فى أمرها ، إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد) .

وكتب الرحالة الألمانى (بول أشميد) كتابًا خاصًا بهذا الموضوع سماه : (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦ م ومما قال فيه : إن مقومات القوى فى الشرق الإسلامى ، تنحصر فى عوامل ثلاثة :

١ - فى قوة الإسلام (كدين) وفى الاعتقاد به ، وفى مثله ، وفى مؤاخاته بين مختلفى الجنس واللون والثقافة .

٢ - وفى وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الإسلامى الذى يمتد من المحيط الأطلسى ، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادى ، على حدود أندونيسيا شرقًا ، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتى ، لا يدع المسلمين فى حاجة مطلقًا إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

٣ - وأخيرًا أشار إلى العامل الثالث وهو : خصوبة النسل

البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة[1] .

ثم قال : (فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ؛ كان الخطر الإسلامى خطرًا منذرًا بفناء أوروبا وبسيادة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله) .

ويقترح (بول أشميد) هذا - بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية ، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية ، كما تبلورت فى تاريخ المسلمين ، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم - أن يتضامن الغرب المسيحى شعوبًا وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن فى أسلوب نافذ حاسم [2] .

وقال (روبرت بين) فى مقدمة كتابه الذى سماه : (السيف المقدس) : (علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم ؛ لأنهم حكموا العالم سابقًا ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، والشعلة التى أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكى يقف

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل بإطلاق فى العالم الإسلامى !

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهى فى إحدى محاضراته .

القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين الذى ناله محمد فى وقعة بدر تذكاراً لانتصاره ؛ لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الإمبريالية) [1] .

وبغض النظر عما فى هذا الكلام من تحامل ، وما يغلى به من حقد ، فهو يبين لنا مبلغ قوى المسلمين فى نظر الأجانب عنهم ، وهم اليوم يسمعون الإسلام (الخطر الأخضر) بعد أن زال (الخطر الأحمر) بانهيار الاتحاد السوفيتى ، وبعد أن تقاربوا مع (الخطر الأصفر) المتمثل فى الصين ، والإسلام ليس خطراً إلا على الإلحاد والفساد والإنحلال والاستعباد .

واسمح لى أن أسوق لك مثلاً معاصراً على القوة الذاتية فى هذا الإسلام ، ذلك المثل هو (تركيا) . تركيا التى أراد أتاتورك وحزبه أن يعرُّوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه ، حتى ألغى غطاء الرأس ، وحتى الكتابة بالحرف العربى ! فقد جعل غطاء الرأس إجباريًا هو القبعة ، وجعل حروف الكتابة هى اللاتينية ، منع الكلام بالعربية ولو فى الأذان ! وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودى أو النصرانى ، وسوى بين الذكر والأنثى

---

(١) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية ، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسينى عن هذا الكتاب ، قدمه إلى الإدارة العامة للثقافة بالأزهر فى أواخر الخمسينات .

فى الميراث ، وجعل القوانين كلها غربية لحمًا ودمًا وعظمًا ، حتى القوانين التى تسمى (الأحوال الشخصية) وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية ، وحورب أهلها بل قوتلوا وقتلوا ، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد ، وإن ظل الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة ، ومرت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة ، كفيلة بأن تميت الإسلام فى الصدور ، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب .

ولكن الإسلام الكامن فى صدور الشعب التركى لم يمت . يمكن أن تقول أنه ركد أو نام ، حتى واتته الفرصة فظهر قوة مؤثرة . ولم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد قوة التدين هناك ، وانكماش الإلحاد والإباحية ، وخفض صوتهما يومًا بعد آخر ، رغم ما لديهما من إمكانات مادية وأدبية ، وما يلقى دعاتهما من مساعدات داخلية وخارجية . وظهرت المدارس القرآنية بالألوف ، وعادت المساجد تبنى ، والكتب الإسلامية تنشر ، والتوجهات الإسلامية تظهر وتؤثر فى الحياة .

ولقد أدت انتفاضة الدين فى تركيا أخيرًا إلى حصول (حزب الرفاه) الإسلامى على الأغلبية النسبية فى البرلمان التركى ، رغم العقبات التى توضع فى طريقه .

إن آية الآيات فى هذا الدين وأثره فى أمته ، ما ذكرناه من قبل : أنه أشد ما يكون قوة وأعظم ما يكون رسوخًا وشموخًا ، حين تنزل

بساحته الأزمات ، وتحدق به الأخطار ، ويشتد على أهله الكرب ، وتضيق بهم المسالك ، ويقل المساعد والنصير .

حينئذ ، يحقق هذا الإسلام معجزته ، فتنبعث الحياة فى الجثمان الهامد ، ويتدفق دم القوة فى عروق الأمة ، وينطلق جنود الحق انطلاقه المارد من القمقم ، فإذا النائم يصحو ، والجبان يتشجع ، والضعيف يقوى ، والشارد يعود ، والشتيت يتجمع ، وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك ، تكوّن سيلاً عارمًا لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود [١] .

* *

● محن الدعاة :

أما اعتراض البعض بالمحن الشداد التى تصب على رؤوس الدعاة إلى الإسلام ، والضربات القاسية التى تنهال عليهم من هنا وهناك ، فمن ذا الذى يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذبين قائمة ؟ أو يرتفع لهم علم ؟ ، أو ينتصر فى الناس نظام يدعون إليه، ورسالة يؤمنون بها ، وهم فى كل يوم بين المطرقة والسندان ؟

فنقول لهؤلاء المعترضين أو المتوجسين :

إن هذه المحن التى تذكرونها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام ، بل هى دليل حياة وحركة وقوة ، فإن الميت الهامد لا يُضَرب ، ولا يؤذَى ، إنما يضرب ويؤذى الحى المتحرك المقاوم .

---

(١) انظر كتابنا (من أجل صحوة راشدة) ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

إن الدعوة التى لا يضطهد أصحابها ، ولا يؤذى دعاتها : دعوة تافهة أو ميتة ، أو دعاتها - على الأقل - تافهون ميتون .

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه ، مبدأ الإسلام ، فهو يقدم كل حين شهداء فى معاركه ، يروون شجرته بدمائهم ، ويبنون صرح مجده بأشلائهم .

وهذه المحن أبلغ معلم ، وأعظم مرب ، لأصحاب الدعوات ، باعتبارهم أفرادًا ، تصفو أنفسهم بالشدة ، وتتمحص قلوبهم بالمحنة ، وقد جاء فى الحديث .

« مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمّى ، كمثل الحديدة تدخل النار ، فيذهب خبثها ، ويبقى طيبها »[(١)] .

وحسبنا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[(٢)] .

* * *

---

(١) رواه البزار كما فى كشف الأستار ، من حديث عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أزهر ، عن أبيه : ١/ ٣٦٢ (٧٥٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع : (٢/ ٣٠٢) : رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه من لا يعرف . ورواه الحاكم فى المستدرك وصحّحه ووافقه الذهبى : ١/ ٧٣ ، ٣٤٨ ، وتعقبهما الألبانى ، وأثبت أن إسناد الحديث حسن ، وهو صحيح بما له من شواهد معروفة ، الصحيحة : ٤/ ٠ ، ٢٩١ (١٧١٤) .

(١) آل عمران : ١٣٩ - ١٤١

مبشرات من السنن الإلٰهية

وهناك مبشرات أخرى مستمدة من سنن الله فى الخلق وفى الاجتماع الإنسانى ، وهى سنن وقوانين ثابتة تجرى على الآخرين ، كما جرت على الأولين ، وتجرى على المسلمين كما تجرى على المشركين ، لا تتخلف ولا تتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١) .

فإذا نظرنا إلى هذه السنن الإلهية وجدنا مجموعة منها فى صفنا نحن المسلمين ، ودعاة الإسلام ، من ذلك :

❊ ❊

● **سُنَّة التداول :**

من هذه السنن : سنة [التداول] أو [المداولة] للأيام بين الأمم والأقوام ، وهى السنة التى قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وقد نزلت بعد غزوة أحد التى أصاب المسلمين فيها ما أصابهم ، قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .

ولهذا قيل : الدهر يومان ، يوم لك ، ويوم عليك ، وقيل : دوام الحال من المحال .

---

(١) فاطر : ٤٣ (٢) آل عمران : ١٤٠

فالأحوال تتبدل ، والدنيا تتحول ، والعالم يتغير . وكم من غنى افتقر ، ومن فقير اغتنى ، وكم من عزيز ذل ، وذليل عز ، وكم من موسر أعسر ، ومن معسر أيسر ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢) .

ومن نظر فى أحوال الأُمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة ، ومن يد إلى أخرى .

ومن حسن حظنا أن [سنة التداول] أو [قانون المداولة بين الناس] يعمل معنا لا ضدنا ، وكما قال الإمام حسن البنا : إن الدور لنا لا علينا !

فقد كانت قيادة العالم قديمًا فى يد الشرق ، على أيدى الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية ، والفارسية والهندية والصينية . ثم انتقلت إلى الغرب ، على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة ، والرومانية ذات التشريع المعروف ، ثم انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، وهى حضارة متميزة جمعت بين العلم والإيمان ، بين الرقى المادى والسمو الروحى ، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته .

---

(١) الانشراح : ٥ ، ٦ (٢) الطلاق : ٧

فأخذ الغرب الزمام ، وكانت له القيادة مرة أخرى ، ولكنه لم يرع أمانة هذه القيادة ، بل أفلس فى ميدان الروح والأخلاق ، وفرط فى العدل ، وأعلى القوة على الحق والمصالح على القيم ، والمادة على الروح ، والجماد على الإنسان ، وكال بمكيالين فى التعامل مع القضايا البشرية ، فكان من سنة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره . والمفروض حسب استقراء التاريخ : أن تعود إلى الشرق مرة أخرى الشرق الذى يملك رسالة غير رسالة الغرب ، وهو الشرق الإسلامى ، فعليه أن يتهيأ لذلك ، ويعد له العدة ، كما قال تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) . وليس بعجيب أن تنتقل عجلة القيادة العالمية من الغرب إلى الشرق ، والغرب الآن هو المتفوق والمقتدر ، والشرق هو المتخلف والعاجز !

فالواقع أن المادية فى الغرب قد تغلغلت فى الفكر والسلوك والحياة ، وأن التحلل والفساد الأخلاقى قد وصل إلى النخاع ، وأن الحضارة لا يمكن - وفق سنن الله - أن تستمر بلا أخلاق ، والأخلاق لا يمكن أن تنمو وتؤثر إلا فى ظلال الإيمان (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٢٩ (٢) الأنبياء : ١٠٥

(٣) انظر : فصل آفات الحضارة المعاصرة ، وفصل : عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار فى كتابنا (الإسلام حضارة الغد) ص ٢٧ - ١١٦ - نشر مكتبة وهبة .

ولقد رأينا ورأى العالم كله ، كيف انهارت القوة العالمية الثانية - وهى الاتحاد السوفييتى - فجأة ، وبلا مقدمات تذكر ، برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة ، وأسلحة استراتيجية جبارة ، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة ، وما ذلك إلا لأن الخراب كان فى الباطن لا فى الظاهر ، وفى المعنويات قبل الماديات .

والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير فى الساحة العالمية ليس أحسن حالاً من نظيره السوفييتى .

* *

- **سنة التغيير :**

ومن السنن الإلهية التى نجدها فى صف المسلمين ، ونعدها من المبشرات : [سنة التغيير] التى قررها القرآن الكريم فى أكثر من آية. فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ، من الصلاح إلى الفساد ، ومن البصيرة إلى العمى ، يغير الله ما بهم من حال النعمة إلى النقمة ، ومن القوة إلى الضعف، ومن العزة إلى الذل ، ومن الرخاء إلى الشدة ، وهذا ما ذكره القرآن فى سورة الأنفال بعد أن ذكر مصير آل فرعون والذين من قبلهم ، الذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .

وقال عز من قائل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ

آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكن الله لهم الأرض ، وسخر لهم قواها ، وآتاهم من كل الثمرات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ووسع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنهم - كما ذكرنا فى [سنة التداول] خانوا أمانة القيادة والمسؤولية ، وطغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وبعبارة وجيزة : أنهم غيروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد ، فهم أهل لأن يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم . ويسحب القيادة منهم ، وينقلها إلى غيرهم .

وتتمة هذه السنة : أن الذين تتغير أنفسهم ، أو يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الكسل إلى العمل ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، فهم أهل أن يغير الله حالهم أو يغير ما بهم من الضعف إلى القوة ، ومن الذلة إلى العزة ، ومن الهزيمة إلى النصر ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الاستضعاف إلى التمكين .

---

(١) الأنفال : ٥٣ ، ٥٤

وهذا ما تشير إليه الآية الأخرى فى سورة الرعد ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وهذه السنة تمنحنا - نحن المسلمين - الأمل فى التغيير وتحسين الأحوال ، فقد رأينا الكثير من المسلمين فى عصر الصحوة الإسلامية ، يتغيرون تغيرًا جذريًا من الإعراض عن الإسلام إلى الإقبال عليه ، من الجهل بأحكامه ، إلى الحرص على التفقه فيه ، من التسيب والشرود عن تعاليمه إلى الالتزام بها ، من انشغال الفرد بخاصة نفسه وعدم اهتمام بأمر أمته إلى حمل هموم الأمة ، والمشاركة فى قضاياها بإخلاص وإيجابية ، من الجرى وراء اللذات واتباع الشهوات إلى إحياء الدعوة وتبنى الجهاد للدفاع عن الدين وحرماته ، من التكشف والتعرى عند النساء إلى الالتزام بالحجاب ، من البعد عن المساجد إلى عمارتها بالصلوات والدروس .

وكل هذه الأعمال والآثار تشعرنا أن الأمة قد تغيرت إلى حد كبير ، ومقتضى عدل الله تعالى وسنته ألا يتخلى عنها ، وأن يكافئها على هذا التغير النفسى والسلوكى العميق بأن يغير ما بها ، ويحولها إلى حال أفضل .



---

(١) الرعد : ١١

وقفات لا بد منها

أخى القارئ الكريم ؛ أحسب أن شعاع الأمل الذى يضئ جوانحى قد وصل إلى قلبك ، وأن غيوم اليأس والإحباط التى خيمت على أفئدة الكثيرين قد تقشعت أو أوشكت ، وأن الشعور بأن نصر الله قريب قد ساد وهيمن ، رغم المؤتمرات التى تعقد ، والمؤامرات التى تدبر ، والحملات التى تشن على الإسلام ، باسم التطرف حينًا ، والإرهاب حينًا ، والأصولية أحيانًا !

أجل ، إنى - برغم الضغوط الهائلة التى تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التى توجه للحركة الإسلامية ، والمكايد الخفية التى تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائها على شعوبهم - برغم هذا كله أنا متفائل بمستقبل الأُمة والصحوة والدعوة .

ولطالما أعلنت فى أكثر من مناسبة فى محاضراتى ودروسى : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية ، والقرن العشرون قرن الشيوعية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية ، والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها

على بضع وعشرين دولة عربية ، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام !

أعنى إذا نظرنا إلى الإسلام دينًا بين الدينين الشهيرين : اليهودية والمسيحية ، أو إذا نظرنا إليه باعتباره نظامًا بين النظامين العالميين : الرأسمالية والشيوعية - فإن الإسلام يتميز بأنه نسيج وحده ، ويحمل عناصر الخلود فى طبيعته ، والإحياء لأمته ، والانتشار لدعوته ، مع مسيس حاجة العالم إليه ، بوصفه رسالة التوازن الوحيدة ، التى يفتقر إليها الإنسان .

وأحمد الله أن الذى قلته منذ زمن وجدت اليوم من يشاركنى فيه : أن القرن القادم هو قرن الإسلام بإذن الله .

قال ذلك الدكتور (مراد هوفمان) فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) الذى أكد أن الفرص متاحة أمام الإسلام ليصبح ديانة العالم الأولى فى القرن ٢١ .

وقاله (جيم ميران) عضو لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكى ، الذي دعا الأمريكيين إلى وجوب التعرف على الإسلام دين السلام والمسامحة ، الدين الذى يحث على الكد والاجتهاد ، ويحب النظام والالتزام ، ويفيض بالحب واللطف ، وهو يعتبر الرسول محمدًا أعظم إنسان عرفه التاريخ ، ويجب التعرف على جوانب عظمته التى كان يتمتع بها ، وكذلك عدد كبير من أصحابه ،

وكل شعوب العالم يجب أن تتعرف على التعاليم التى جاء بها محمد ، ولكن للأسف لم يحدث ذلك لسببين :

الأول : هو اتخاذ غير المسلمين موقفًا من هذه التعاليم ، منطلقه التعصب والتحيز والجهل .

والثانى : هو عدم سعى المسلمين حثيثًا لإطلاع غيرهم على عظمة دينهم .

وانتهى فى حديثه الطويل مع مدير تحرير مجلة (المجتمع) الكويتية إلى قوله : أنا أعتقد أن القرن القادم هو قرن الإسلام ، وقرن الثقافة الإسلامية ، وستكون هذه فرصة لإحلال مزيد من السلام والرفاهية فى كل بقاع العالم أ هـ [١] .

* *

● تنبيه على أمرين :

أريد أن أنبه فى هذه الوقفات على أمرين مهمين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجددين كانوا من ذوى القلوب الآملة فى الله ، الواثقة بالنصر ، الراجية للغد ، المرتقبة لطلوع الفجر .

---

(١) انظر : حوار أحمد منصور مع جيم ميران فى مجلة (المجتمع) العدد ١١٩٠ ، الصادر فى ١٩٩٦/٣/٥ م .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ، بل الداعية الحق هو الذى يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * ويرزُقْهُ من حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إنَّ اللهَ بَالِغُ أمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىءٍ قَدْرًا ﴾ (١)

* *

● حسن البنا والأمل :

وقد كان إمامنا الشهيد حسن البنا من أقوى الناس أملاً فى النصر، ورجاء فى المستقبل ، رغم ما يعلمه ويحسه من ألغام العقبات التى توضع فى طريقه ، بين ذلك فى محاضراته ودروسه ، وسجله فى رسائله الشهيرة ، وكتبه فى مقالاته ، وخصوصًا فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية . الذى كان يكتب فيها (حديث الجمعة) الأسبوعى ، ولا سيما فى سنة ١٩٤٨ م والمحنة تطل برأسها ، ويهئ (الطهاة المهرة) طبختها المسمومة .

أذكر من هذه المقالات : مقالاً بعنوان (ولو) يبشر فيه أن النصر قريب ، ولو اشتدت الغمة ، وأن الفجر قادم وإن طالت الظلمة ،

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣

ومقالاً بعنوان (أربعة أدلة) استدل فيه بالنصوص والتاريخ والحساب على أن النصر آتٍ لا ريبَ فيه .

وفى رسائله أكد هذا المعنى تأكيدًا بليغًا ، بأسلوبه (السهل الممتنع) كما فى رسالة (دعوتنا فى طور جديد) التى ركز فيها على (يقظة الروح) التى يريد بها حياة القلوب ، وصحوة الوجدان والمشاعر ، وطموح الأنفس وتوثبها لتحقيق الأهداف السامية والمثل العليا ، وهو ما فعله النبى ﷺ بنفوس أصحابه ، حيث غرس فيها هذه المشاعر الثلاثة : الإيمان والعزة والأمل ، الإيمان بعظمة الرسالة ، والاعتزاز باعتناقها ، والأمل فى تأييد الله إياها .

وفى رسالة (إلى أى شىء ندعو الناس) يقول البنا رحمه الله تحت عنوان (طريق طويلة) :

« أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتاليات فى بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء الكرام عن غايتهم ، وأبانت لهم ولو إلى حد ما عن مناهجهم فى السير إلى هذه الغاية ، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسلام ومجده حديثًا طويلاً هو أشبه بهذه الكلمات التى رآها القراء تحت عنوان : (إلى أى شىء ندعو الناس) .

ولقد أصغى إلىَّ من حدثتهم إصغاء مشكورًا ، وكنا نتفهم القول تباعًا أولاً فأولاً ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تمامًا بشرف

الغاية ونجاح الوسيلة . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، وأن التيارات الجارفة الهدامة فى البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، وحتى لا يجد القراء الكرام فى أنفسهم هذا الشعور الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هذه الكلمة مفعمة بالأمل ، فياضة باليقين فى النجاح إن شاء الله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وسأحصر الموضوع فى نظرتين إيجابيتين :

* *

● نظرة فلسفية اجتماعية :

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها فى مدارج الكمال ، فمن ذا الذى كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين ، بل إن أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتها الواقع وأيدها البرهان ، والمثل على ذلك كثيرة ، وهى من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها .

* *

● **نظرة تاريخية :**

إن نهضات الأُمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يخيل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبتغى ضرب من المحال . ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة ، القليلة الوسائل ، إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح . ومن ذا الذى كان يصدّق أن الجزيرة العربية ، وهى تلك الصحراء الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان ، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحى والسياسى على أعظم دول العالم ؟ ومن ذا الذى كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بنى علىّ والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوى الواسع الأكناف ما بين عشية وضحاها ، وهى ما كانت يومًا من الأيام إلا عرضة للقتل والتشريد والنفى والتهديد ؟ ومن ذا الذى كان يظن أن صلاح الدين الأيوبى يقف الأعوام الطوال ، فيرد ملوك أوروبا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم ، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكًا من ملوكهم الأكابر ؟

ذلك فى التاريخ القديم ، وفى التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك ، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفيت أسرته وشرد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلاً ، ثم يكون بعد ذلك أملاً من آمال العالم الإسلامى فى إعادة مجده وإحياء وحدته ؟

* *

● هل هناك طريق أخرى ؟ :

وثم نظرتان سلبيتان تحدثان النتيجة بعينها ، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهًا قويًا صحيحًا ، أولاهما : أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها فى بناء النهضات بناء صحيحًا ، وقد أثبتت التجربة صحة هذه النظرية .

الواجب أولاً :

وثانيتها : أن العامل يعمل لأداء الواجب أولاً ، ثم للأجر الأخروى ثانيًا ، ثم للإفادة ثالثًا ، وهو إن عمل فقد أدى الواجب، وفاز بثواب الله ما فى ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ؛ وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله ، فقد تأتى فرصة لم تكن فى حسابه تجعل عمله يأتى بأبرك الثمرات ، على حين أنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، وضاع منه أجر الجهاد ، وحرم الإفادة قطعًا ، فأى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا ؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى صراحة ووضوح فى الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) » (*) .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥

(*) انظر : مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٥٢ - ٥٤) .

● المبشرات تدفع إلى المزيد من العمل :

والأمر الثانى الذى أريد التنبيه عليه هنا ، هو : أن المبشرات بمستقبل الإسلام ، التى ذكرناها ، لا ينبغى لنا أن نتكل عليها ، وننام على آذاننا ، ونخلد إلى الدعة والكسل ، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبذله ، وجهاد نمارسه ، وعمل دؤوب نقوم به فى جوانب حياتنا كلها ، نقوم ما اعوج منها ، ونصلح ما فسد ، ونبنى ما تهدم ، ونقوى ما ضعف ، ونكمل ما نقص ، بروح المجددين ، لا بعقلية المقلدين .

نستلهم تراثنا ، ونجعله منارًا يهدينا ، لا قيدًا يثقل حركتنا ، ويعوق انطلاقنا .

نقتبس الحكمة من أى وعاء خرجت ، فلا نتقيد بمدرسة إسلامية واحدة ، ولا نلتزم مذهبًا واحدًا لا نخرج عنه ، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب ، فى ضوء القواعد المتفق عليها ، رادّين المتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، والجزئيات إلى الكليات ، والفروع إلى الأصول .

بل نقتبس من مدارس الغرب ومناهجه وتجاربه كل ما ينفعنا ، ويمكننا أن نحوره ونطوره فى إطار معاييرنا وحاجاتنا وظروفنا ، حتى يلائمنا ، ويغدو جزءًا من منظومة حياتنا . ولا حرج علينا فى ذلك ، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها .

لا بد لنا أن نخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم ، وأن ننمو نموًا حقيقيًا ، اقتصاديًا ، وبشريًا ، ماديًا ومعنويًا ، وأن نجند كل طاقاتنا - التى أهدرنا أو عطلنا الكثير منها - لتنمية شاملة ، للحياة وللإنسان ، وأن نتخذ من الإسلام أكبر حافز لحشد هذه الطاقات وتقويتها ، ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادى ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى فى ميدان الجهاد : ﴿ إن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُون يَغلبُوا مائَتَيْن ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا ألفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُم قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

لقد أرشد القرآن إلى أن نصر الله لا يكون ولا يتم إلا بالمؤمنين ، كما أنه لا يكون إلا للمؤمنين . كما قال تعالى يخاطب رسوله الكريم : ﴿ هُوَ الَّذى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

فلا نتوقع أن تنزل ملائكة السماء التى نزلت فى بدر أو فى الأحزاب أو فى حنين - على قوم فرغت قلوبهم من الإيمان ، أو خلت حياتهم من أخلاق الإيمان ، وأعمال المؤمنين ، فالله تعالى يقول فى بدر : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .

إن الرسالات لا تنتصر وحدها ، إنما تنتصر بأهلها ، والحق لا

---

(١) الأنفال : ٦٥ (٢) الأنفال : ٦٢ (٣) الأنفال : ١٢

يعلو وحده ، إنما يعلو - وفق سنن الله - بدعاته ورجاله الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص ، كما قال الشاعر :

وشيمة السيف : أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا فى يدىْ بطل !

إن المبشرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقودًا متجددًا ، لمزيد من العطاء والعمل الذى تحتاج إليه أمتنا على كل صعيد . ولا تطمع الأُمة أن يمدها الله بنصره ، على ما بها من سيء الخصال ، وسيء الفعال ، بل لا بد للأمة أن تغير ما بأنفسها حتي يغير الله ما بها .

لا تطمع الأُمة أن تنتصر على اليهود ، وهى على حالها من التخلف والتمزق ، والتعادى ، والعجز والكسل ، والتسيب والضياع .

يستحيل أن ينصر الله الكُسالى على العاملين ، والمختلفين على المتحدين ، والفوضويين على المنظمين ، والمرتجلين على المخططين ، والمتسيبين على المنضبطين ، والمفكرين فى مصالحهم على المفكرين فى هموم أمتهم .

يستحيل أن تنتصر أمة تحارب أفضل عناصرها ، وتنكل بخيرة أبنائها ، أعنى : العناصر الإسلامية ، التى يشهد لها من عايشوها أنها أذكى عقولاً ، وأطهر قلوبًا ، وأنظف أيديا ، وأصدق عزائم ، وأزكى أخلاقًا ، وأقوم أعمالاً ، وأكثر بذلاً وتضحية ، من سائر الفئات .

إنهم بريئون من ارتكاب الموبقات ،. بل الصغائر ، بل الشبهات ، حتى السيجارة لا يعرفونها ولا تعرفهم . إنهم رهبان الليل وفرسان النهار ، يعرفهم الليل قانتين ، والنهار جاهدين ، ويعرفهم الناس عاملين ، ويعرفهم ربهم مخلصين ، ولا نزكيهم على الله تعالى .

يستحيل أن تنتصر أمة أعظم ما يشغلها لعب الكرة ، وأهم ما يملأ صحفها المقروءة ، وإذاعتها المسموعة والمرئية هو الغناء والرقص والتمثيل ، وأشهر نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء ، ولا المفكرين ، بل هم المطربون والمطربات ، والراقصون والراقصات ، والممثلون والممثلات ، الأحياء منهم والأموات !

يستحيل أن تنتصر أمة متوسط عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة فى اليوم ، فى حين يعرق الناس فى العالم المتقدم طوال اليوم ، ويكد ويكدح حتى يعود إلى بيته آخر النهار ، مكدودًا مهدودًا ، يخلد بسرعة إلى الراحة ليواصل عمله مبكرًا فى غده .

على القوى الموجهة للأمة ، المؤثرة فى سيرها ، أن تتعاون فيما بينها للنهوض بها فى كل الميادين ، وتعويض ما فاتها على مر السنين ، وسد الفجوة التى تباعد بينها وبين العالم المتقدم ، ومواجهة التحديات بعزم وإيمان ، معتمدة على تخطيط دقيق ، واستشراف مستقبلى بصير .

عليها أن تدرس الأمراض التى تشكو منها ، وتعرف أسبابها ،

وتعمل على علاجها ، وما خلق الله داء إلا خلق له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

عليها - فى الجانب الاقتصادى - أن تعمل على زيادة الانتاج ، وترشيد الاستهلاك ، وعدالة التوزيع ، وسلامة التداول .

وفى الجانب الاجتماعى : أن تقوى الإخاء بين الأفراد ، والتعاون بين الطبقات ، والتضامن بين الشعوب ، وأن تقرب المسافة بين الأغنياء والفقراء ، وأن ترعى الأمومة والطفولة والشيخوخة ، وتقيم الحياة الأسرية على أسس مكينة تظلها السكينة والمودة والرحمة .

وفى الجانب العقلى والثقافى : عليها أن تتحرر من آثار الغزو الفكرى ، والاستعمار الثقافى ، فى مجال التربية والتعليم ، ومجال الثقافة والإعلام ، فهذه هى التى تصنع عقول الناس ، وتنشئ اتجاهاتهم النفسية والفكرية .

وفى الجانب السياسى : عليها أن تقاوم الاستبداد والطغيان ، وترسّخ دعائم الشورى ، وترعى حقوق الإنسان ، وتربى الناس على ضرورة التناصح وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقويم العوج باليد لمن استطاع ، وباللسان لمن قدر عليه ، وبالقلب عند العجز ، وذلك أضعف الإيمان ، وأن تضع من الدساتير ما يفصل الحقوق والواجبات ، يميز بين السلطات ، ويقيم دولة المؤسسات ، ويسوى بين الناس فى الكرامة والحرية وتحمل المسؤولية . ولا يعطى امتيازًا لأحد على أحد إلا بالتقوى .

لقد بينا فى كتابنا (أين الخلل ؟) الطاقات المعطلة فى الأمة الإسلامية ، والطاقات المعطلة فى الحركة الإسلامية ، ودعونا إلى إصلاح الخلل فى الجانبين ، إن أردنا غدًا أفضل ، ومستقبلاً أمثل .

لا بد أن يتعاون الدعاة والمصلحون لاستفراغ الجهود ، لتغيير الأمة من داخلها ، وتعبئة قواها الذاتية ، لتعوض ما فاتها ، وتلحق بركب العالم المتطور ، تأخذ أفضل ما عنده ، وتعطيه أفضل ما عندها . ولا ريب أن عندها الكثير الطيب المبارك ، الذى ورثته من رسالة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

وإن الإسلام - الذى غير العرب قديمًا ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعلهم رعاة الأمم ، بعد أن كانوا رعاة الغنم ! - قادر على أن يغيرهم اليوم ، ويعيدهم - كما يحب الله لهم - خير أمة أخرجت للناس ، وأن يجعل منهم (صحابة جددًا) بعثهم الله تعالى ، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان والمذاهب والفلسفات إلى عدل الإسلام ، وقيم الإسلام .

إن الصحابة رضى الله عنهم كانوا موقنين - كل الإيقان - بأنهم منصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، وأن هذا وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكن هذا الإيمان أو اليقين لم يقعدهم عن العمل الجاهد ، وعن الجهاد المر ، وعن البذل الدائم ، حتى يتحقق وعد الله ، فإنما يتحقق فى الأرض وعد الله فى السماء بهم ،

لا بغيرهم ، فهم أدوات القدر فى تحقيق الوعد الإلهى . بل هم القدر الموعود ، كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رووا أن بعض قادة الفرس سأل بعض قادة الصحابة فى إحدى معارك الفتح الإسلامى : من أنتم ؟ وما شأنكم ؟ فقال له : نحن قدر الله ، ابتلاكـم الله بنا ، وابتلانا بكم ، فلو كنتم فى سحابة لصعدنا إليكم ، أو لهبطتم إلينا !

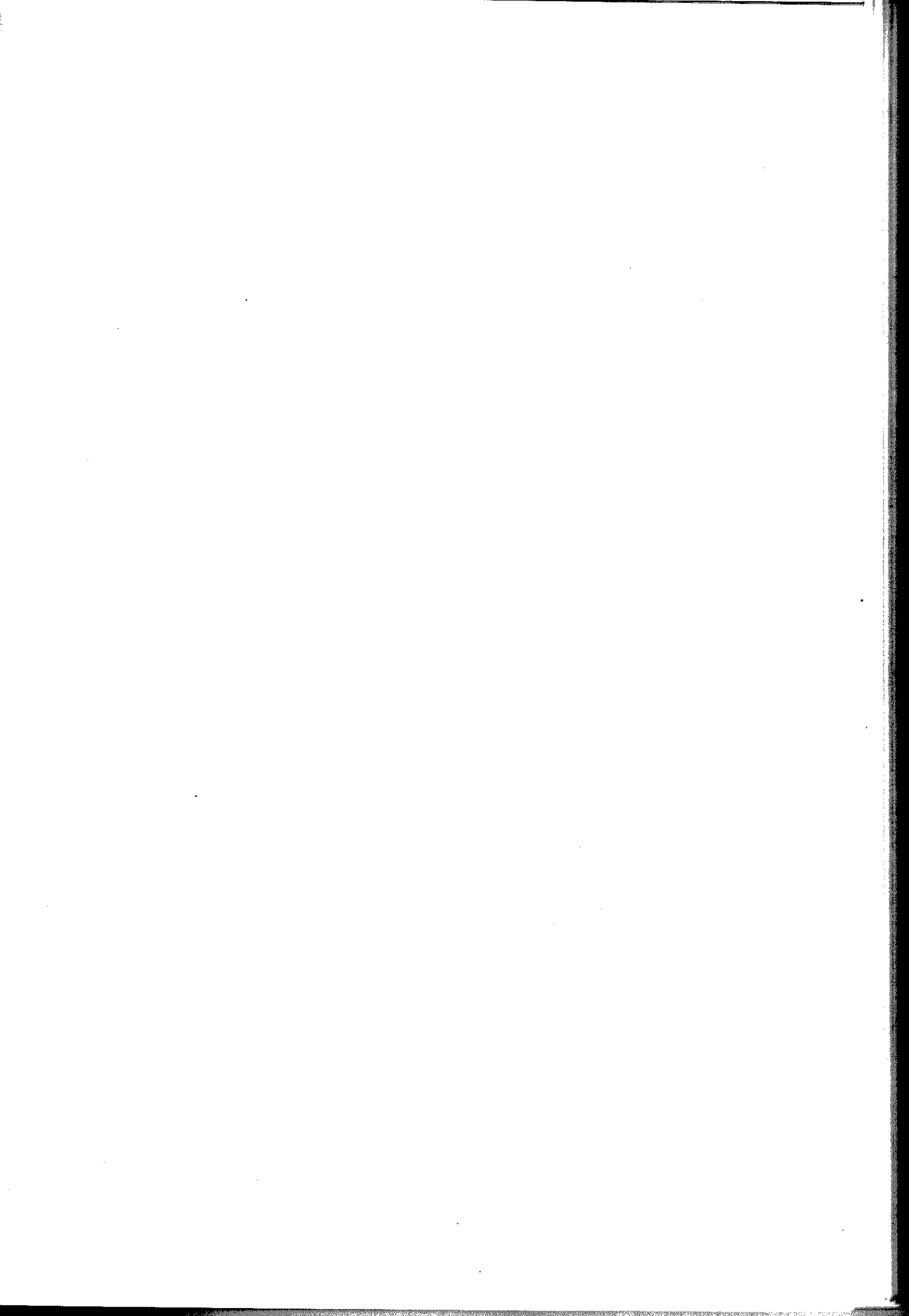
بهذه الروح القوية المتوثبة الآملة يجب أن نجابه مشكلاتنا ، ونواجه معوقاتنا من الداخل ومن الخارج ، بادئين بالداخل ، فهو أُس البلاء وجرثومة الداء . والله تعالى يوجهنا إلى ذلك حين خاطب المسلمين بعد انكسار غزوة أحد فيقول : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) .

فلنمض إذن على بركة الله عاملين مصممين ، فى صدق لا يعرف الزيف ، وثبات لا يعرف التردد ، وعزم لا يعرف الكلل ، ويقين لا يعرف الشك ، وأمل لا يعرف القنوط ، وجهاد لا يعرف القعود . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

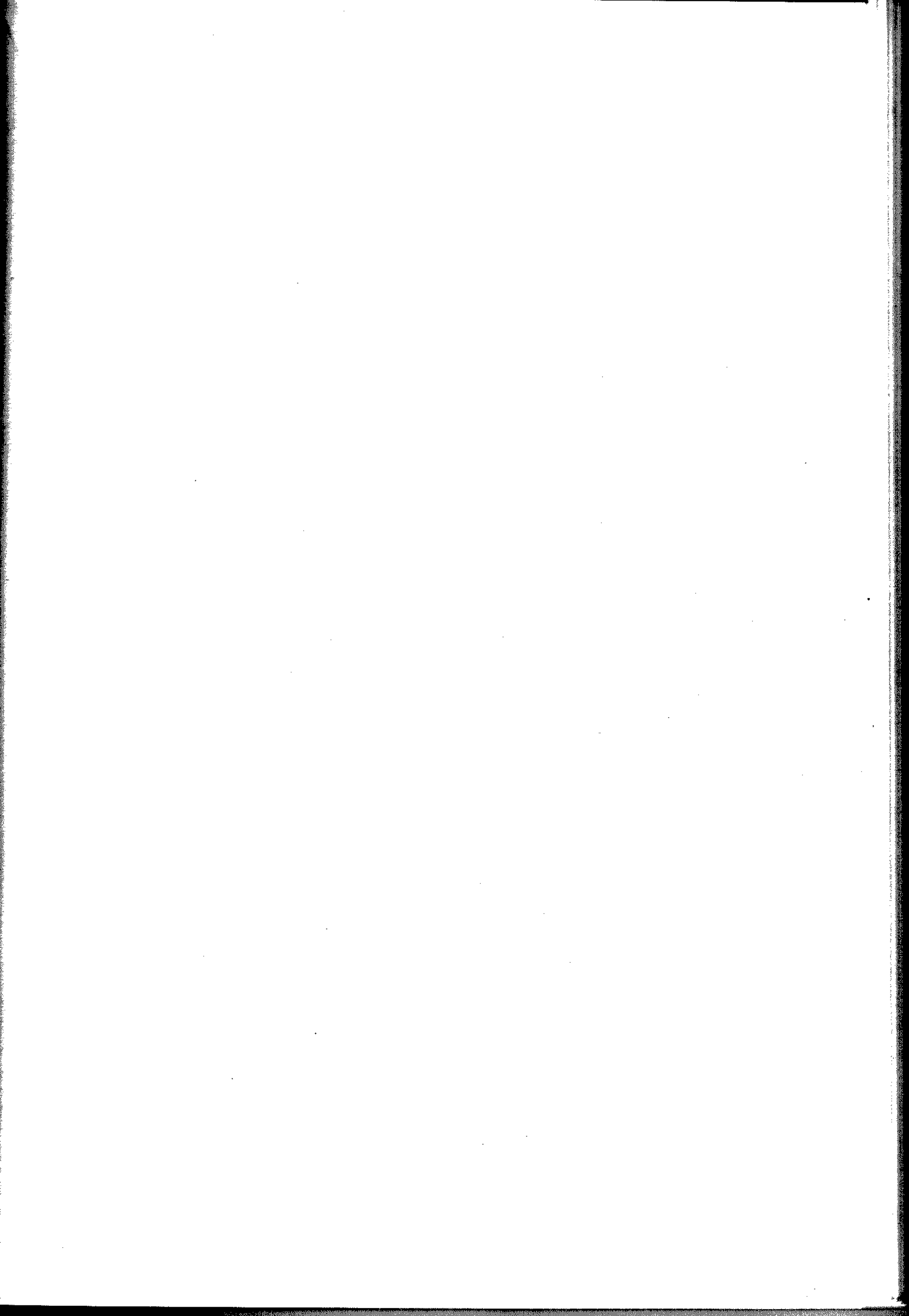


---

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) العنكبوت : ٦٩



أضواء
على أحاديث أُسِئ فهمها



حديث (بدأ الإسلام غريبًا)

س : من الأحاديث المشتهرة على الألسنة والأقلام : حديث (بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية ؟ وما المراد به ؟ وهل كلمة (غريبًا) من الغربة أو من الغرابة ؟ فقد سمعت بعض المتحدثين فى (الإذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفى أن تكون من (الغربة) .

وإذا كانت من الغربة كما هو الشائع والمتبادر ، فهل يعنى هذا ضعف الإسلام وأفول نجمه ؟

وهل هناك دلائل على انتصار الإسلام مرة أخرى ، كما انتصر فى القرون الأولى للهجرة ؟ .

ج : الحديث صحيح الإسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن ، وهو مروى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد ، وابن عباس ، رضى الله عنهم جميعًا ، كما فى الجامع الصغير .

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء) .

وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها ، وبقى الكلام فى معناه .

ومن المؤسف أن كثيرًا من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان) أو ما يسمى (أحاديث الفتن) و(أشراط الساعة) يفهمها بعض الناس فهمًا يوحى باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير .

ولا يُتصور أن يدعو الرسول الكريم ﷺ الأُمة إلى اليأس والقنوط ، وترك الفساد يستشرى فى الناس ، والمنكرات تنخر فى عظام المجتمع ، دون أن يصنع الناس شيئًا ، يقوّم ما أعوجّ ، أو يصلح ما فسد .

وكيف يُتصور ذلك ، وهو - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالعمل لعمارة الأرض ، إلى أن تلفظ الحياة آخر أنفاسها ، كما يتضح ذلك من الحديث الشريف : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يغرسها ، فيلغرسها » (١) .

ومعنى هذا أنه لن يأكل من ثمر هذا الغرس ولا أحد من بعده ، ما دامت الساعة قد قامت ، أو توشك أن تقوم .

فإذا كان هذا مطلوبًا فى أمر الدنيا ، فأمر الدين أعظم وأجل ، ولا بد من العمل من أجله إلى آخر رمق فى هذه الحياة .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ، وكذا الطيالسى والبزار ، وقال الهيثمى : رواته ثقات أثبات .

أما معنى كلمة (غريبًا) فالمتبادر أنها من (الغربة) لا من (الغرابة) بدليل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصف بالغربة لا الغرابة .

وإنما كانت غربتهم من غربة الإسلام الذى يؤمنون به ويدعون إليه ، وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة (غريب) فى أكثر من حديث مثل (كن فى الدنيا كأنك غريب) رواه البخارى .

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات فى هذا الحديث ، فى وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغرابة .

هذا إلى أن الواقع اليوم وفى عصور خلت ، يدل على غربة الإسلام فى دياره ذاتها ، وبين أهله أنفسهم . حتى إن من يدعو إلى الإسلام الحق يعانى الاضطهاد والتنكيل ، أو الشنق أو الاغتيال !

ولكن هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة ، أو هى غربة جزئية ومؤقتة ؟ فقد تكون فى بلد دون آخر ، وفى زمن دون آخر . وبين قوم دون غيرهم ، كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضى الله عنه .

والذى أراه : أن الحديث يتحدث عن دورات أو (مَوْجات) تأتى وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سنن الله التى لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية، التى لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم

بكيلين ، فما يجرى على الأديان والمذاهب يجرى على الإسلام ، وما يجرى على سائر الأمم يجرى على أمة الإسلام .

فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام فى فترة من الفترات ، ودورة من الدورات ، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته ، ويقوم من كبوته ، ويخرج عن غربته ، كما فعل حين بدأ .

فقد بدأ غريبًا ، ولكنه لم يستمر غريبًا ، لقد كان ضعيفًا ثم قوى مستخفيًا ثم ظهر ، محدودًا ثم انتشر ، مضطهدًا ثم انتصر .

وسيعود غريبًا كما بدأ ، ضعيفًا ليقوى ، ثم يقوى ، مطاردًا ليظهر ثم يظهر على الدين كله ، ملاحقًا مضطهدًا لينتشر وينتشر ، ثم ينتصر وينتصر .

فلا دلالة فى الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه .

ومما يدل على أن الحديث لا يعنى الاستسلام أو اليأس ، ولا يدعو إليه بحال : ما جاء فى بعض الروايات من وصف لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة ، ويحيون ما أماته الناس منها .

فهم قوم إيجابيون بناؤون مصلحون ، وليسوا من السلبيين أو الانعزاليين أو الاتكاليين ، الذين يدعون الأقدار تجرى فى أعنتها ، ولا يحركون ساكنًا ، أو ينبهون غافلاً .

ومن المفيد أن أنقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم حول هذا الحديث ،

عند شرح كلام شيخه الهروى فى باب (الغربة) من (منازل السائرين) إلى مقامات : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فقال رحمه الله فى (مدارج السالكين) :

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [1] ، قال ابن القيم معلقًا وشارحًا :

(استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب : يدل على رسوخه فى العلم والمعرفة ، وفهم القرآن ، فإن الغرباء فى العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة فى الآية ، وهم الذين أشار إليهم النبى ﷺ فى قوله : « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ ؛ قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » [2] . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن زهير عن عمرو بن أبى عمرو - مولى

---

(١) هود : ١١٦

(٢) أورده الهيثمى فى (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدى ، بنحوه ، وقال : رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله رجال الصحيح ، غير بكر بن سليم ، وهو ثقة : (٧/ ٢٧٨) ، ومن حديث جابر ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن صالح ، كاتب الليث ، وهو ضعيف وقد وثق : (٧/ ٢٧٨) .

المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبى ﷺ قال : « طوبى للغرباء » . قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : « الذين يزيدون إذا نقص الناس » (١) .

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا - لم ينقلب على الراوى لفظه وهو : « الذين ينقصون إذا زاد الناس » - فمعناه : الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقى ، إذا نقص الناس من ذلك . والله أعلم .

وفى حديث الأعمش عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « النُزّاع من القبائل » (٢) .

---

(١) بحثت عن الحديث فى مظانه فى المسند فلم أجده ، وكذلك لم أجده فى (مجمع الزوائد) للهيثمى ، ولا أشار إليه فى المعجم المفهرس للكتب التسعة . بل لم أجد المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة فى المسند ، وفقًا لفهرس الشيخ الألبانى . فإما أن يكون ساقطًا من المطبوع كما تبينت ذلك مع عقبة بن مرة الجهنى ، فإن له ثلاثة أحاديث فى المسند ، ليس فى المطبوع إلا واحد منها ، أو يكون أحمد رواه خارج المسند . والله أعلم .

(٢) الحديث فى الدارمى برقم (٢٧٥٧) وابن ماجه برقم (٣٩٨٨) ، والترمذى برقم (٢٦٣١) بدون السؤال وقال : حسن غريب صحيح ، والبيهقى فى الزهد برقم (٢٠٨) ، والبغوى فى شرح السنة ، وصحّحه : (١١٨/١) ، حديث (٦٤) - نشر المكتب الإسلامى.

وفى حديث عبد الله بن عمرو قال : قال النبى ﷺ ذات يوم . ونحن عنده - « طوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « ناس صالحون قليل فى ناس كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » (١) .

وقال أحمد : حدثنا الهيثم بن جبل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن أحب شىء إلى الله الغرباء » قيل : ومن الغرباء ؟ قال : « الفرارون بدينهم . يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة » (٢) .

وفى حديث آخر « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يحيون سنتى ، ويعلمونها الناس » (٣) .

---

(١) الحديث فى المسند وصحَّحه الشيخ شاكر ، كذا أورده الهيثمى : (٧/ ٢٧٨) ، وقال : رواه أحمد والطبرانى فى « الأوسط » وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف ، وذكره فى موضع آخر جزءًا من حديث وعزاه إلى الطبرانى فى الكبير ، وقال : له فيه أسانيد ، ورجال أحدهما رجال الصحيح : (١٠/ ٢٥٦).

(٢) رواه أحمد فى (الزهد) ص ٧٧ ، وليس فى (المسند) كما رواه البيهقى فى الزهد برقم (٢٠٦) .

(٣) رواه البيهقى فى الزهد من حديث كثير بن عبد الله بن عوف ، عن أبيه ، عن جده ، وهو ضعيف جدًا رقم (٢٠٧) كما رواه الترمذى بهذا =

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد ، فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبى ﷺ ، وهو يبكى ، فقال له عمر : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ هلك أخوك : ؟ قال : لا ، ولكن حديثًا حدثنيه حبيبى ﷺ ، وأنا فى المسجد ، فقال : ما هو ؟ قال : إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء . الذين إذا غابوا لم يفتقدوا . وإذا حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الهدى . يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة) (١) .

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون . ولقلتهم فى الناس جدًا : سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات ، فأهل الإسلام فى الناس غرباء ، والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم فى المؤمنين غرباء ، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فيهم غرباء ، والداعون إليها الصابرون على أذى

= السند برقم (٢٦٣٢) ، وقال : حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح !! ولفظه : (فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى) . وهذا مما أخذه عليه النقاد ، ولعله حسنه أو صحَّحه لكثرة شواهده .

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) ، وضعفه فى الزوائد بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر ، وقال : صحيح ولا علة له عن زيد بن أسلم : (٤/١) ، ووافقه الذهبى وانظر : كتابنا المنتقى من الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقى فى الزهد بسند آخر ، برقم (١٩٧) ، عن ابن عمر .

المخالفين : هم أشد هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًا ، فلا غربة عليهم ، وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عَزَّ وجَلَّ فيهم : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنِ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (١) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هى الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم . كما قيل :

فليـــس غريبًا من تناءت دياره   ولكن من تنأينَ عنه غريب !

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التى ذكر الله ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، فقال : (يا رب وحيد مريض غريب . فقيل له : يا موسى ؛ الوحيد : من ليس له مثلى أنيس ، والمريض : من ليس له مثلى طبيب . والغريب : من ليس بينى وبينه معاملة) .

فالغربة ثلاثة أنواع : غربة أهل الله وأهل سُـنَّة رسوله بين هذا الخلق . وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها . وأخبر عن الدين الذى جاء به : أنه (بدأ غريبًا) ، وأنه (سيعود غريبًا كما بدأ) ، وأن (أهله يصيرون غرباء) .

وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم ، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقًا .

---

(١) الأنعام : ١١٦

فإنهم لم يأووا إلى غير الله ، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم . فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا فى مكانهم . فيقال لهم : (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده) .

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها . بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس . وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا . فوليه الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

وفى حديث القاسم عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال - عن الله تعالى - : (إن أغبط أوليائى عندى : لمؤمن ، خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة . أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافًا ، وكان مع ذلك غامضًا فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر على ذلك حتى لقى الله . ثم حلت منيته (١) ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه) (٢) .

---

(١) نص الترمذى : ثم نفض بيده فقال : عجلت منيته .. إلخ . . والمراد بقوله : أغبط الناس : أحق من يتمنى الناس مثل حاله . وخفيف الحاذ ، أى : خفيف الظهر من العيال . كفافًا ، أى : بقدر الحاجة ، لا يشار إليه بالأصابع ، أى : أنه مغمور غير مشهور ، ومعنى (عجلت منيته) : أنه لم يعمر طويلاً ، فقد يصاب أو يستشهد فى سبيل الله . قل تراثه : لم يترك مالاً كثيرًا . قلت بواكيه : ربما لموته فى الغربة ، فلا أحد يعرفه يبكى عليه .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيد الله بن زحر عن على =

ومن هؤلاء الغرباء : من ذكرهم أنس فى حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره) (١) .

وفى حديث أبى إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : كل ضعيف أغبر ، ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وقال الحسن : المؤمن فى الدنيا كالغريب ، لا يجزع من ذلها ،

= ابن زيد عن القاسم ، وهو إسناد ضعيف ، وإن حسنه الترمذى ، كما رواه ابن ماجه بنحوه بإسناد آخر (٤١١٧) ، وفيه راويان ضعيفان كما فى الزوائد للبوصيرى .

(١) أورده الهيثمى بنحوه فى « المجمع » : (١٠/ ٢٦٤) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن موسى التميمى وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن جابر بن هرم ، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه ، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود ، وإسناده أجود ، وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) الحديث رقم(٢٦٢٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٥) ، وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعفوه ، وحسنه بعضهم لشواهده ، انظر : فيض القدير :حديث (٢٨٥٢) .

ولا ينافس فى عزها . للناس حال وله حال . الناس منه فى راحة ، وهو من نفسه فى تعب .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبى ﷺ : التمسك بالسنة ، إذا رغب عنها الناس . وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو المعروف عندهم ، وتجريد التوحيد ، وإن أنكر ذلك أكثر الناس . وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ، ولا مذهب ، ولا طائفة ، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده ، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًا ، وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم . فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ، ومفارقة للسواد الأعظم !

ومعنى قول النبى ﷺ : « هم النزَّاع من القبآئل » : أن الله سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديان مختلفة ، فهم بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهود وصابئة وفلاسفة ، وكان الإسلام فى أول ظهوره غريبًا . وكان من أسلم منهم ، واستجاب لله ولرسوله : غريبًا فى حيه وقبيلته ، وأهله وعشيرته .

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل ، بل آحادًا منهم . تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا فى الإسلام ،

فكانوا هم الغرباء حقًا حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ، ودخل الناس فيه أفواجًا ، فزالت تلك الغربة عنهم ، ثم أخذ فى الاغتراب والترحل ، حتى عاد غريبًا كما بدأ ، بل الإسلام الحق - الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه فى أول ظهوره ، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة . فالإسلام الحقيقى غريب جدًا . وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًا ، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة . ذات أتباع ورئاسات ، ومناصب وولايات . ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التى هى منتهى فضيلتهم وعلمهم ، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم وإرادتهم ؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شيخهم ، وأُعجب كل منهم برأيه ؟ كما قال النبى ﷺ : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، ورأيت أمرًا لا يد لك به ، فعليك بخاصة نفسك ، وإياك وعوامهم . فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر

فيهم كالقابض على الجمر » . (ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة [(١)] ، ففى سنن أبى داود والترمذى - من حديث أبى ثعلبة الخشنى - قال : (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [(٢)] ، فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من وراءكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله . قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » [(٣)] وهذا الأجر إنما هو لغربته بين الناس ، والتمسك بالسُّنَّة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم .

---

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر فى أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد ، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر وأهل أحد ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة ، وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة ، ويؤيده حديث الترمذى : « مثل أمتى كمثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » .

(٢) المائدة : ١٠٥

(٣) رواه أبو داود فى الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير برقم (٣٠٦٠) ، وقال حسن غريب ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) .

فإذا أراد المؤمن ، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه ، وفقهًا فى سنة رسوله ، وفهمًا فى كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكبهم عن الصراط المستقيم ، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه [١] ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأما إن دعاهم إلى ذلك ، وقدح فيما هم عليه ، فهنالك تقوم قيامتهم ، ويبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، ويُجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله .

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم ، غريب فى تمسكه بالسُّنَّة ، لتمسكهم بالبدع ، غريب فى اعتقاده ، لفساد عقائدهم . غريب فى صلاته ، لسوء صلاتهم . غريب فى طريقه ، لضلال وفساد طرقهم . غريب فى نسبته ، لمخالفة نسبهم . غريب فى معاشرته لهم ، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة

---

(١) فى عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله ، وإلى كتابه وسنة نبيه ، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم ، ومطاردتها لهم، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضييق عليهم ، ثم كيد القوى المعادية للإسلام ، وما أكثرها عددًا ، وأقواها عدة ، وأشدها مكرًا !

مساعدًا ولا معينًا . فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع ، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع . آمر بالمعروف ، ناهٍ عن المنكر ، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف [1] أ هـ .

❊ ❊

• بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد :

أما ما سأل عنه الأخ من وجود بشائر ودلائل على انتصار الإسلام فى المستقبل ، فهى كثيرة ومتوافرة ، فى كل من القرآن والسنة ، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها ، ولا يبرزون إلا ما يوحى ظاهره بالقنوط ، وقد ذكرنا جملاً من هذه البشائر من قبل ، فليُرْجَع إليها .

ومن هذه البشائر :

١ - ظهور الصحوة الإسلامية ، التى أعادت للأمة الثقة بالإسلام ، والرجاء فى غده ، وقد أقلقت أعداء الإسلام فى الداخل والخارج ، وهى جديرة أن تقود الأُمة إلى مواطن النصر، إذا قدر الله لها أن يتولى زمامها المرشدون الراشدون ، من أولى

---

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم :
(جـ١/ ١٩٤ - ٢٠٠) ط السنة المحمدية .

الأيدى والأبصار ، الذين آتاهم الله الفقه فى سنن الله ، والفقه فى دين الله ، والحكمة فى النظر ، والحكمة فى العمل : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

٢ - انهيار الأنظمة الشمولية ، وخصوصًا الشيوعية التى زعمت يومًا أنها ستغزو العالم ، وترث الأديان ، وتهزم الفلسفات ، والتى لقيت أولى هزائمها على أيدى إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ، والذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة فى التاريخ .

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى ، بدءًا بالاتحاد السوڤييتى وأوروبا الشرقية ، وإنتهاء بألبانيا .



(١) البقرة : ٢٦٩

حديث (لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه)

س : كنت أقرأ فى كتاب دينى ، فصادفنى فيه حديث اقشعر له جلدى ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة ، فالحديث يقول فيه النبى ﷺ : « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرنى بأن الحديث صحيح ، وأنه من رواية البخارى ، فأُسقِط فى يدى ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث فى صحيح البخارى ، أصح كتاب فى الإسلام بعد كتابِ الله تعالى ؟

فهل معنى هذا الحديث أننا فى انحدار دائم ، وتدهور مطرد ، وأننا ننتقل من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءًا ، حتى تقوم الساعة ؟

هذا مع أن هناك كثيرًا من الناس يعتقدون عكس هذا تمامًا : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علمًا بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر فى السماء !

ثم إن الحديث يلقى فى نفوسنا أن لا أمل فى شىء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، ما دمنا ننحدر إلى الهاوية يومًا بعد يوم ، فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لا زمة دائمة لا بد أن نخضع لها.

حتى تقوم الساعة على لكع ابن لكع أى كافر ابن كافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتتبعين لما تكتبون بأن لكم فى هذا الحديث تأويلاً أودعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلنى عليه ، عسى أن يزيح ما بنفسى من قلق ، وما بقلبى من حيرة وبلبلة .

جزاكم الله عن العلم والإسلام خيرالجزاء .

م . ك . ع

الرباط - المغرب

* ج : الحديث المذكور رواه الإمام البخارى فى جامعه الصحيح ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنده ، ولكن الآفة تأتى هنا من فهمه فهمًا يخالف سنن الله ، أو حقائق العلم ، أو ثوابت الواقع ، ولا يمكن أن يأتى الدين بما يخالف ذلك ، لأن الدين حق ، وهذه الأشياء المذكورة حق ، والحق لا يتناقض ، فإما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا ، أو يكون للنص الدينى تأويل غير الظاهر المتبادر منه .

وأحاديث (الفتن) وما يتعلق بما يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم ، ولذا ينبغى التأمل الطويل فى معانيها ، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل ، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير .

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث . وقد تعرضت لبيان معناه ، ورد الأفهام الخاطئة التى أحاطت به ، وذلك فى كتابى (كيف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته فى ذلك :

* *

● هل كل زمن شر مما قبله ؟

روى البخارى بسنده إلى الزبير بن عدى ، قال : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : إصبروا ، فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ .

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل ، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ ، مدعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور فى تدهور دائم ، وسقوط مستمر وهوى متتابع ، من درك إلى درك أسفل منه ، فهى لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ ، ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ منه . حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم .

وآخرون توقفوا فى قبول الحديث ، وربما تعجل بعضهم فردَّه ، لأنه فى ظنه يدعو :

أولاً : إلى اليأس والقنوط .

وثانيًا : إلى السلبية فى مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين .

وثالثًا : يعارض فكرة (التطور) التى قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعًا : ينافى الواقع التاريخى للمسلمين .

وخامسًا : يعارض الأحاديث التى جاءت فى ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذى عرف باسم المهدى) وفى نزول عيسى ابن مريم ، وإقامته لدولة الإسلام ، وإعلاء كلمته فى الأرض كلها .

ومن الحق علينا أن نقول : إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه . يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث : أن كل زمن شر من الذى قبله ، مع أن بعض الأزمنة تكون فى الشر دون التى قبلها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا زمن عمر ابن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج - الذى عمت الشكوى منه - بيسير ، وقد اشتهر الخير الذي كان فى زمن عمر بن عبد العزيز ، بل لو قيل : إن الشر اضمحل فى زمانه ، لما كان بعيدًا ، فضلاً عن أن يكون شرًا من الذى قبله .

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة :

أ - فالإمام الحسن البصرى حمل الحديث على الأكثر الأغلب ، فقد سئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ، فقال : لا بد للناس من تنفيس !

ب - وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله : (لا يأتى

عليكم زمان إلا وهو أشر مما كان قبله ، أما إنى لا أعنى أميرًا خيرًا من أمير ، ولا عامًا خيرًا من عام ، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ، ثم لا تجدون منهم خلفًا ، ويجئ قوم يفتون برأيهم) وفى لفظ عنه : (فيثلمون الإسلام ويهدمونه) ورجح الحافظ فى (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا ، قائلاً : وهو أولى بالاتباع .

ولكنه فى الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه ، فالنصوص تدل على أن فى الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته ، ولو لم يكن إلا زمن المهدى والمسيح فى آخر الزمان لكفى .

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود فى العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد ، ويكفى أن نذكر مثلاً من ظهر فى القرن الثامن من العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد ، وتدهور الأوضاع فى القرن السابع ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وسائر تلاميذه فى الشام ، والشاطبى فى الأندلس ، وابن خلدون فى المغرب ، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر فى كتابه (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) .

وفى العصور التى تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطى فى مصر ، وابن الوزير فى اليمن ، والدهلوى فى الهند ، والشوكانى والصنعانى فى اليمن ، وابن عبد الوهاب فى نجد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين .

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان فى صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه ، مستدلاً بالأحاديث الواردة فى المهدى ، وأنه يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً [١] .

جـ - ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ فى (الفتح) بقوله : (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة ، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك ، فيختص بهم ، فأما من بعدهم فلم يقصد فى الخبر المذكور ، لكن الصحابى فهم التعميم - فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر ، وهم - أو جلهم - من التابعين) [٢] أ . هـ .

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضًا : فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين ، وقد توفى فى زمن عثمان رضى الله عنهما .

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت ، والرضا بالمنكر والفساد ، ويؤيد السلبية فى مواجهة الطغاة المتجبرين فى الأرض . . .

فالرد على ذلك من عدة أوجه :

---

(١) فتح البارى : جـ ١٦ ، ص ٢٢٨ - ط الحلبى .

(٢) المرجع السابق .

أولاً : إن القائل (اصبروا) هو أنس رضى الله عنه ، فليس هو من الحديث المرفوع ، وإنما استنبطه منه ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم ﷺ .

ثانيًا : إن أنسا لم يأمرهم بـ (الرضا) بالظلم والفساد ، وإنما أمرهم بـ (الصبر) وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الرضى بالكفر كفر ، وبالمنكر منكر ، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد ، وقد يصبر المرء على الشيء ، وهو كاره له ، ساع فى تغييره .

ثالثًا : إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت ، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة ، مجتهدًا أن يعد العدة ، ويتخذ الأسباب ، معتضدًا بكل من يحمل فكرته ، منتهزًا الفرصة المواتية ، ليواجه قوة الباطل بقوة الحق ، وأنصار الظلم بأنصار العدل ، وضد الطاغوت بجند الله .

وقد صبر النبى ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى مكة على الأصنام وعبادها ، فيصلى بالمسجد الحرام ، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا ، بل طاف فى السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه فى عمرة القضاء ، وهو يراها ولا يمسها ، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها .

ولهذا قرر علماؤنا : أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال .

وعلى هذا لا ينبغى أن يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين.

رابعًا : إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمام الطغاة المتألهين ، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله ، فقد جاء فى الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ».

* * *

حديث (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » مقولة غريبة ، مضمونها : أن الإنسانية التى يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأنّ هذا التقدم إلى الأسوأ حتمىّ لا رادّ له ، وفقًا لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام فى طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون [1] .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالم سنّى ولا معتزلى - فيما أعلم - فى سنده أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطى وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر [2] .

---

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث - للدكتور فهمى جدعان ص ٢١ ، وما بعدها - طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر فى الحديث المتواتر . للكتانى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور ، وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلّم له .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذى تلقّى عن رسول الله ﷺ ، وتربّى فى حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هدى رسول الله ، وحمله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره، فهو الجيل الذى نقل القرآن للأُمة ، وروى لها السنن ، وفتح الله على يديه البلاد ، وهدى به العباد . ثم الجيل الذى تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ، والجيل الثالث الذى سار على دربهم واتبعهم بإحسان ، فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن (الإشعاع الروحى) لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا فى الجملة لا فى التفصيل ، وفى أمر الدين والتقوى لا فى أمر الحياة والعلم والعمران ، فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة فى الالتزام الدينى .

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما فى سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يومًا ، وأن الرخاء سيبلغ مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى أن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا . فهل يعتبر هذا كله (تقدمًا إلى الأسوأ) ؟!

إن أى قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيرًا من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن فى عصر النبوة ، وهم الذين أمرنا أن نتبع سنتهم ، ونعضّ عليها بالنواجذ ، فهى امتداد للسنة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين فى عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن فى العصر النبوى ولا العصر الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية فى شتى أنواع العلوم والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريق الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين

والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ؛ والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكانًا فى حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفى هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة فى مختلف مجالاتها ، وشتى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أم تقيّد أرجلهم ، أوتشل تفكيرهم ، محتّمة عليهم (التقدم إلى الأسوأ) !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التى صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن فى شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) ، وهو أمر اعترف به الجميع ، ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمى ، وتقدمهم الحضارى ، وجهادهم الأخلاقى . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانيًا أعلى ، وبذلك يجمعـــون بين الحسنيين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضارى المادى ، وحسنة السمو الروحى ، والترقى الإيمانى والخلقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها فى عصور الفتن والأزمات التى يمتحن فيها أهل

الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : « بل منكم »[1] .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، وملك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث فى كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها ، وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، فى صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* *

● استمرار الخير فى سائر أجيال الأُمة :

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعنى أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ، كتاب الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه فى « الفتن » (٤٠١٤) ، كلهم عن أبى ثعلبة الخشنى .

بل الحق الذى لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة : واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة فى كل العصور ، ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وفى الحديث الشريف « مثل أمتي كالمطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) .

يقرر الشراح هنا : أنه كما لا يحكم بوجود النفع فى بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية فى بعض أجيال الأُمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفى هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأُمة لها خاصيّة وفضيلة ، توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها فى النشوء والنماء لا يمكن

---

(١) المائدة : ٤٨

(٢) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبرانى عن عمار بن ياسر ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : (١٠/٦٨) : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن ابن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقتان ، وفى عبيد كلام لا يضر ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عمران بن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا . المجمع : (١٠/٦٨) ، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن سلمان جـ ١٦ حديث (٧٢٢٦) ، وحسنه محققه بشواهده .

إنكارها . فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا من قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا فى التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم فى التقرير والتأكيد ، فكلّ ذنبهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التى لا يدرى أين طرفاها [1] .

والمسلمون فى كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًا : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحت جملة أحاديث عن عدد من الصحـــابة تؤكد أن « لا تزال طائفة من هذه الأُمة قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله » [2] ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [3] .

---

(١) انظر ص (١٢٠) ، هامش ١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب (الإمارة) ٥٣ ، والبخارى فى صحيحه ٦١ ، كتاب (المناقب) ٢٨ ، باب : ٦/ ٦٣٢

(٣) الأعراف : ١٨١

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته ، وتنشر دعوته ، وتتسع دولته [١] .

* *

● سنن وقواعد مطردة :

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادئ راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسننًا مطردة ، من محكمات القرآن والسُّنَّة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، فى الدنيا قبل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [٢] ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [٣] .

٢ - أن الجهاد فى الله ، سواء كان جهادًا روحيًا أم ماديًا ، لا يهدره الله أبدًا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٤] .

٣ - أن من نصر الله نصره الله ، ومكّن له فى الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والصالحات : كل ما تصلح به

---

(١) انظر صفحة (١١) ، هامش ١

(٢) الكهف : ٣٠ (٣) الأعراف : ١٧٠ (٤) العنكبوت : ٦٩

الحياة روحيًا وماديًا ، وما يصلح به الإنسان فرديًا وجماعيًا . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢) .



---

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١ (٢) النور : ٥٥

الفهرس

❊ ❊ ❊

رقم الإيداع
١٩٩٦ / ٧٢٧٦
التوقيع الدولى.I.S.B.N
977 - 225 - 098 - 5

سلسلة ترشيد الصحوة
للدكتور يوسف القرضاوى
تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

● صدر منها

١ - الدين فى عصر العلم

٢ - الإسلام والفن

٣ - النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه

٤ - مركز المرأة فى الحياة الإسلامية

٥ - فتاوى المرأة المسلمة

٦ - جريمة الردة .. وعقوبة المرتد .. فى ضوء القرآن والسنة

٧ - الاقليات الدينية .. والحل الإسلامي

٨ - المبشرات بانتصار الإسلام

❊ ❊ ❊